

إنْجَادَةِ كِتابَةَ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ
مِنْ خَلَالِ
المنْجِ الْإِسْلَامِيِّ الْأَصِيلِ لِكتَابَةِ التَّارِيخِ

تصْحِيحُ أَكْبَرِ خَطَا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ الْحَدِيثِ

الْأُطْلَانُ عَبْدُ الْحَمِيرِ الْخَلْفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

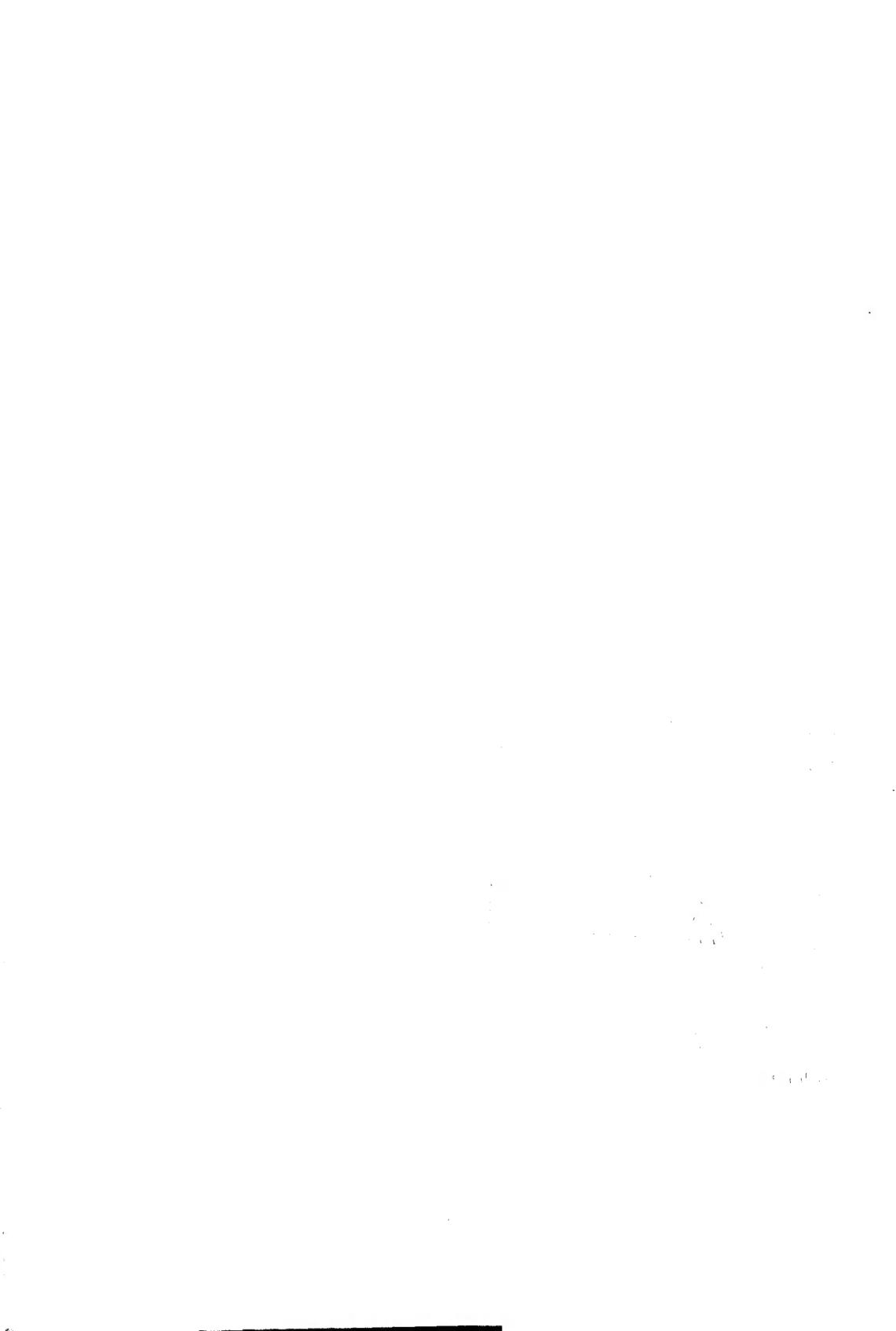
بِتَكَلْمَةٍ
أُنُورُ الْجَنْدِيُّ

دَارُ الْكِتَبِ السَّلْفِيَّةِ
الثَّامِنَةُ

دَارُ ابْنِ زَيْدُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلطان عبد الحميد
والخلافة الـ 58



الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ

جميع الحقوق محفوظة

دار ابن زيدون
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ٧٨٤٦ - بيروت (لبنان)

دار الكتب السلفية
مؤسسة علمية لنشر وتحقيق وتوزيع الكتاب الإسلامي
القاهرة - خلف مسرح الجمهورية بعابدين
١٠ شارع الشيخ علي الغایاتی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه
ومن والاه .

أما بعد :

في هذه الرسالة نحاول أن نستصفي المنهج الإسلامي في تفسير التاريخ ، ونحاول أن نصحح المفاهيم إزاء أمررين خطيرين :
أولاً : فساد نظرية السامية التي قدمها الاستشراق ، وفرقها على مناهج التاريخ والأدب في المدارس والجامعات .
ثانياً : ثبات مفهوم الانقطاع الحضاري فيها قبل الاسلام وبعده ، وإن كل ما كان قبل الاسلام هو تمهيد له ومقدمة ، وأن الاسلام قد جبُّ التاريخ السابق له ، فلم يكن من الممكن إحياءه مرة أخرى .

ثم تجيء الحقيقة الباهرة التي لا سبييل إلى نقضها وهي أن الاسلام والإسلام وحده هو الذي نقل العالم كله من طفولة البشرية إلى رشد الإنسانية ليدخل في الدعوة العالمية الخاتمة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أنور الجندي

هذا وبالله التوفيق

مقدمة

دعوة الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام

تعالى الصيحات في الوقت الحاضر بالدعوة الى إعادة كتابة تاريخ الاسلام بعد أن تبين للعلماء والباحثين أن الصورة الموجودة الان في أيدي شبابنا وطلبة مدارسنا وجامعاتنا والتي صنعت في ظل الاستعمار وتشكلت أولاً في البلاد التي سيطر عليها ليست بالصورة المثلثى ، ذلك أن هذه الصورة نبتت أساساً في ظل الاحتلال بعد أن انفصلت عن الدولة الأم : الدولة العثمانية . وكان الطابع الأساسي الذي أريد لها هو أن تكون كتابات محلية خالصة : لا تستهدف كتابة تاريخ الاسلام نفسه ولكن كتابة تاريخ الاوطان ، ومن ثم انحازت هذه الكتابات للأمة أو القطر أو البلد وأعلت من شأن وجوده الخاص ، وتاريخه القديم ، واستوحت أشد الصفحات بعدها عن الأصالة وعن الرؤية الصحيحة ، فأعلى شأن الفرعونية والفينيقية والبابلية والأشورية والبربرية والزنجية وغيرها . فاذا عرض أمر الاسلام فانما يعرض على هون وفي أسلوب يوحى بأن الأمم أو الأقطار كانت أكبر منه وأنها حين دخل عليها أقامته وسيطرت عليه وعدته بعض الكتابات استعمراً أشبه بالاستعمار الفارسي والرومانى .

ويرجع ذلك كله الى أن النظرة الأساسية التي قامت عليها كتابة التاريخ نظرة استعمارية ووافدة وحين فتحت الآفاق لدراسة تاريخ الاسلام ، درس على أنه تاريخ الدولة أو الامبراطورية التي قامت ثم تمزقت الى دول . وحين عرض لم يعرض إلا من خلال خلافات بعض الملوك والأمراء والحكام وصراعاتهم الخاصة .

وكان التركيز شديدا على الخلاف الأول بين الصحابة (عثمان وعلى ومعاوية) ، في محاولة لتفسيره تفسيرا ماديا خطيرا بأنه صراع على الحكم .

وغلبت على دراسة التاريخ مذاهب الاستشراق وهى مذاهب غربية أصلا قامت فى ظل تاريخ أوربى وغربي له تحدياته وظروفه ، مثل الصراع بين الكنيسة والعلماء ، وبين النساء والشعب ، وصراع المذاهب الكاثوليكية والبروتستانتية وذلك القتال الرهيب بين الملوك والدول والأمم .

هذا المذهب في تفسير التاريخ الذى كان مطبقا فى الغرب حاول المستشرقون نقله الى أفق التاريخ الاسلامى رغبة في محاكمة هذا التاريخ إليه ، فكان خطرا وفاسدا ومضطربا ، لأنه ليس متلقا معه وليس منبعا من وجوده ومذاهب التاريخ والأدب والنقد وغيرها جميرا لا يمكن أن تنقل من بيته الى آخرى ، وإنما هي تنبع من بيته لأنها جزء من الثقافة الذاتية الخاصة القائمة على العقائد والتراجم والعادات والطوابع العميقه للأمم .

ولكن الاستعمار ومن ورائه التغريب والغزو الثقافى قرر هذا المنهج من تفسير التاريخ على التاريخ الاسلامى فمزقه إربا

وأحاله ركاما ، فهو أولا يدرس مجزءا واقعة أو أنه يرجح روایة توافق الهوى أو أنه لا يفهم تيار التاريخ الاسلامى نفسه ، هذا التيار الذى لا يفهمه الا من يعرف منطلقه الأساسى كما رسمه القرآن الكريم وصوره الاسلام في أصوله وقيمته .

وقد استهدفت هذه الدراسات بالطابع الوطنى الحالى ، الذى حجب عنها الصورة الكاملة للتاريخ بأبعادها حيث عجزت هذه الصورة أو تعمدت ألا تشير الى أن هذا الوطن وهذه الدولة ، ليست الا جزءا من الوطن الاسلامى ومن الدولة الاسلامية أساسا وأن الروابط بين الجزء والكل لا يمكن أن تنقص لأنها روابط عقيدة ولغة وشريعة وتاريخ طويل وأمة وسطى جامعة لا يستطيع جزء منها أن ينفصل أو ينغلق مهما حاول ذلك أو حاوله له الاستعمار .

وفضلا عن هذا فان هذه النظرة الوطنية الضيقة التى جهلت مكانها كجزء من الكل ، لم تتوقف عند هذا الحد ، بل انها أعلنت استعلاءها بخصائصها التاريخية القديمة أو طبيعتها الخاصة ثم ذهبت الى أبعد من ذلك حين أعلنت الحرب والخصومة على الأجزاء المجاورة لها وأقامة سد عال بينها وبينه وذلك بهدف ألا تتصل الأجزاء مرة أخرى ولا تلتقي .

ولقد استمر هذا الاتجاه طويلا ثم جاءت بعد ذلك الدعوات القومية والدعوة العربية بالذات فكان لها أيضا محاذيرها في كتابة التاريخ . فقد أخذ العرب يفصلون تاريخهم عن تاريخ الأمة الاسلامية ويفصلون جغرافيتهم عن جغرافية العالم الاسلامى وبدا كأنما العرب أمة قائمة بنفسها فكان لها تاريخها الخاص فى

الجاهلية ولم يكن الاسلام الا نبتا من النبات ، ولا تزال الأمة العربية هي الأمة العربية التي لم يغير فيها الاسلام شيئا ، ثم يجيء بعد ذلك الاستعلاء بدور العرب في الفتح والتتوسيع والحضارة .

وكل هذا أيضا من آثار السيطرة الاستعمارية على التاريخ الاسلامي في محاولة تمزيقه الى تاريخ دول وأمم والى صيغ هذه التجزئة بالتعصب والاستعلاء العنصري .

ولذلك فقد كان من أخطر ما واجه التاريخ الاسلامي ، هذه المجموعة من أنبياء المستشرقين وحملة أولوية الفكر الغربي ودعاة التغريب الذين سيطروا على مجال التربية والتعليم والذين ما زالوا منبئين في عديد من الجامعات ومعاهد الارساليات حيث نجد الشباب المسلم يعرف عن نابليون أكثر من خالد بن الوليد وطارق بن زياد .

هؤلاء الذين يريدون تفسير تاريخنا الاسلامي في الاطار المحلي أو الاقليمي أو القومي أو الوطني في سبيل إعلاء دعوة العنصرية أو العرق مع أن الاسلام جاء ليقضى على استعلاء العنصرية والعرقية ويدعو الى إقامة مجتمع الإنماء الانساني العالمي .

كذلك فان الدعوة إلى ربط التاريخ الحديث بالتاريخ القديم السابق للإسلام جاهليا أو فرعونيا أو فينيقيا إنما هي دعوة إلى أمر مستحيل حيث سيطر الاسلام على الساحة الفكرية والاجتماعية والروحية والنفسية للبشرية بعد أربعة عشر قرنا وقطع الصلة بينهم وبين الماضي قطعا لا سبيل إلى اعادته وقد أكد علماء كثيرون غربيون أيضا نظرية « الانقطاع الحضاري ولا استمرارية التاريخ »

في هذه المنطقة ، وال حاجز الضخم الذى أقامه الاسلام بين الأمم وبين ما كان لها من تاريخ ودين وعقيدة وفکر من قبل .

ذلك أن ظهور الاسلام - وهو كذلك في تقدير الباحثين الغربيين المنصفين هو علامة بارزة على بدء تاريخ العصر الحديث حتى بالنسبة لعوالم الغرب نفسه وان كل ما سبق الاسلام من حركات التاريخ انما كانت تمهدًا له ، فالاسلام هو الذى حمل الى البشرية لأول مرة « الأخوة البشرية » ووحدة الجنس الانساني ووحدة الدين ووحدة الفكر بدلاً عن الوثنية في الفكر والعبودية في المجتمع فهو الذى حرر الفرد في الجماعة وحرر النفس من عبادة غير الله وحرر العقل بالنظر إلى الكون فدفعه إلى إنشاء المنهج العلمي التجريبى قاعدة الحضارة القائمة ولم يكن يعرف منه قبل الاسلام شيء ما .

كذلك الخطر الذى نواجهه فى دراسة التاريخ : وهو تاريخ اسلامى أم تاريخ عربى أم تاريخ اسلامى عربى وفي تسمية الحضارة هل هي اسلامية أم عربية والفتواحات هل هي اسلامية أم عربية والعلماء والمفكرون هل هم عرب أم فرس أم ترك .

كل هذه محاولات للتزييف وإثارة الشبهات وصرف الشباب المثقف عن الحقيقة التي هي معروفة ومقررة من أن الاسلام هو الذى أعطى العرب هذه الوحيدة وهذه المكانة وهو الذى دفعهم فى الأرض وأن هذه الحضارة وذلك الفتح وهذا العلم كله انما جاء من الاسلام ولو لا الاسلام ما استطاع العرب أن يقتحموا الأفاق أو يقيموا حضارة ما .

ونحن نعرف أن التراث الفكري الذى كان موجودا قبل الاسلام سواء تراث بابل الغنوسي أو تراث فارس الوثنى أو تراث اليونان المادى ، انما كان عبارة عن محاولات من البشر لتبرير رغبات الانسان ومطامعه وأهوائه دون أن تكون قائمة على توحيد أو عدالة أو رحمة وأن تراث الأديان نفسه كان قبل ذلك كله هو الضوء الوحيد الذى عرفته البشرية فى طريقها ، وان هذا التراث قد حاولت التفسيرات الزائفة والدعوات المضللة أن تبده وتمزقه وتخرجه عن مضمونه حتى جاء الاسلام فألقى الى البشرية تلك الحصيلة الضخمة البارزة من العلم والفهم والایمان والضياء لآخرتهم من الظلمات الى النور وان هذه الحصيلة وحدتها هي التي فتحت الآفاق الى النهضة والحضارة التي شملت أغلب أجزاء العالم اذاك - هذا وان كانت الحضارة الاسلامية قد استصفت اليها كل عصارات الفكر القديم وما وجدته صالحها وصهرته في بوتقتها - ولم تترك الا الزائف الفاسد .

ومن هنا فالحضارة الاسلامية حقا ، وهؤلاء العلماء ليسوا عربا وليسوا فرسا وليسواأتراكا وانما هم مسلمون كونت عقلياتهم فكرة التوحيد وملأ نفوسهم كلمة القرآن وغمرت أرواحهم دعوة الله الى النظر في السموات والأرض فكل ما أنتجوا انما جاء من محيط القرآن والاسلام وليس من محيط بلادهم أو تراثهم ، ذاك أن الاسلام انما أعاد صياغة عقليات وقلوب ونفوس أربابه وأصحابه خلقا جديدا فشكلهم على نمط جديد هو روح الاسلام ومن قلب هذا الروح كان تواجههم ومن هنا فان هذا التكوين النفسي والعقلى هو بمثابة الجنس والأخوة الاسلاميين .

ان منهج تفسير الاسلام للتاريخ هو المنطلق الوحيد للنظر في التاريخ الاسلامي العربي واعادة كتابته من جديد ، فان التاريخ المكتوب الان واقع تحت تأثير النظرة الاستشراقية التي تغض من شأن الاسلام لحساب خلفياتها الاستعمارية ، او النظرة القاصرة التي تستمد قدرتها من العقلية الغربية المسيحية التي لم تستوعب الفارق البعيد بين العقائد والأخلاق والقيم والتى تنطلق من مصدر واحد هو أن الاسلام دين عبادى لا هوتى ممحض ، وهى نظرية المسيحية ، او نظرة الفكر الغربى المسيحى التى لا تعترف بأن الاسلام انما هو نظام اجتماعى ومنهج حياة أصلا وأن الدين بمعنى العبادة واللاهوت جزء منه .

فالغربي ينطلق من قاعدة أن الدين لله وأن المجتمع بكل شرائمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يخضع لنظريات بشرية وأيديولوجيات يصنعها الفلاسفة وليس كذلك الاسلام : الاسلام الذى أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليكون منهج حياة لهذه الأمة التى شرقت وغربت ووصلت الى حدود نهر اللوار فى فرنسا والى أسوار فىينا فى قلب أوروبا والتى يشمل ضياؤها ذلك المدى الممتد من الصين الى غرب أوروبا ومن هنا تبدأ القاعدة التى تقوم على التفسير الاسلامى للتاريخ .

فهل آمن دعاة إعادة كتابة التاريخ بهذه القاعدة الأصولية ، ان عليهم أن يعلنوا ذلك صراحة وأن يتزموا بذلك في كتابة أبحاثهم على أن يختار لهذا العمل كل من آمن بالاسلام وعاش له وامتلاط نفسه ايمانا بصدقه وبقدراته على تغيير حياة المسلمين ودعوتهم الى القوة والعزوة من جديد ذلك لأن التفسير الاسلامى للتاريخ يؤمن بأن

هزيمة المسلمين في السنوات الماضية وتقليلهم بين الغزو والنكسة والنكبة واقتطاع فلسطين وبيت المقدس كل هذا إنما جاء ثمرة (التحول) الخطير الذي دفعهم إلى نفض أيديهم من مناهج مجتمعهم ونظام حياتهم الأصيل القرآني المصدر الرباني الأساسي ، إلى التماس مناهج الأمم ، هذه المناهج البشرية سواء منها الغربية أو الماركسية وإن هذا التفريط في منهجهم هو الذي ألقى إليهم هذه الهزائم والنكبات وأنه لا خلاص لهم مما هي من هزيمة وتخلف إلا بالعودة مرة أخرى إلى التماس منهجهم الأصيل والاستمداد من النبع الأول : القرآن الكريم .

وان هذه الظاهرة قد تكررت في تاريخهم مرات ومرات ، فهم كلما نفروا أيديهم من منهج القرآن ضربهم الله بالذلة حتى يعودوا إليه ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الدِّينِ خَلَوْا مِنْ قَبْلٍ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

ذلك تفسير حركة التاريخ الإسلامي بين النصر والهزيمة .

كذلك فان هناك ملحوظا أساسيا لا بد من تقديره هو أن هناك فرقا بعيدا وبونا شاسعا بين « المنهج » وبين « الواقع » : بين المنهج الرباني الذي جاء به الإسلام والذي لا يختلف ولا يتغير والذي يحمل في تضاعيفه أسباب النصر والقوة ووسائل الهزيمة والتخلف .

وبين الواقع التاريخي الذي عاشه المسلمون والذي هو التاريخ الإسلامي ولا يمكن أن يكون التاريخ الإسلامي حجة على المنهج أو مثارا للتوجيه الشبهة إليه ، بل على العكس من ذلك : ان

المنهج هو الحجة لأنه هو عنصر الثبات وهو القوة التي يستمد منها المسلمون أسباب حياتهم وطريق عيشهم . فالمسلمون حين ينحرفون عنها تقع الأزمة وتبدأ عوامل الهزيمة .

وتاريخ الاسلام فيه النصر وفيه الهزيمة وكلاهما يرد الى تطبيق المنهج أو التخلف عنه .

وفي تاريخ الاسلام الذي يعرض الان ويقدم لأبنائنا زيف كثير لأنه يحاول أن يعلى شيئاً كثيراً من الروايات الباطلة في سبيل إثارة جو من الخصومة والخلاف بين الفرق المختلفة أو الأحزاب والدول ، وذلك مما فرضه الاستعمار والاستشراق حتى يحتقر المسلمين تاريخهم وتضعف مكانته في نفوسهم .

وكذلك فان هناك ازورارا كبيرا عن المواقف الحاسمة والبطولات الضخمة ، وذلك حتى لا ينبهر المسلمون بعزمهم أجدادهم ، ولا يعرفوا حقيقة الدور الذي قاموا به في بناء الحضارة .

وكذلك فان هناك آراء بأن للعامل الاجتماعي آثارا في التاريخ ، ولكن ليس لأحد أنها يفترض أنه وحده العامل المؤثر وإنما هي في مجموعها عوامل ذات أثر بدرجات متفاوتة وهناك عامل آخر له أهميته ولا ينفصل أبدا في دراسة تاريخ الاسلام هو عامل العقيدة واللوحي والنبوة ، وإرادة الله العليا التي تتحرك من داخلها ارادة الانسان والتي تفرض وجودها على حركة الكون كله .

وبعد فاننا نتطلع الى اعادة كتابة تاريخ الاسلام بحرص كبير

ونأمل من الغيورين أن يكونوا عوناً لأمتهم لتخريج من دائرة سيطرة الاستشراق والتغريب والغزو الثقافي .

ان المحاولة التي جرت منذ وقت بعيد في سبيل تفسير الاسلام (حركته ودعوته) تفسيراً مادياً صرفاً لا ريب تعجز أشد العجز عن أن تقول الكلمة الفاصلة ، لأنها تعجز عن أن تستوفى الأبعاد المختلفة ، والجوانب المتعددة ، حين تضع بينها وبين الحقيقة حجاباً ، هذه الحقيقة الممثلة في العوامل النفسية والمعنوية والروحية والفكرية وهي عوامل أشد أثراً وأبعد عمقاً وأكثر أهمية من الجانب المادي الواحد الذي هو أحد جوانب التفسير لا محالة ولكنه ليس واحداً ولا يلي أكبر أهمية .

ان التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ الاسلامي إنما يحاول أن يواجه البحر بإثناء من ماء ، أو الجنة الفيحاء بفسيلة من خطب .

لقد حاولت كتابات كثيرة في السنوات الأخيرة أن تمثل الاسلام وكأنه ثورة الفقراء ضد الأغنياء فحسب والحق أن الاسلام ليس ثورة موقوتة ولكنه حركة شاملة من حيث الزمن ومن حيث المضامين لتعزيز أشياء كثيرة تغيير المجتمع وتغيير النفس وتغيير الأخلاق وتغيير الاقتصاد .

ومن هنا فإن الاسلام ليس هو التفسير الاقتصادي وليس محمد صلى الله عليه وسلم هو المصلح الاجتماعي أو رسول الحرية وليس يكفي حين يذكر أن تورد شطر الآية الكريمة : ﴿ قل انما أنا بشر ﴾ فهذا تزييف فإن الآية تقول : ﴿ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلى انما ال الحكم الله واحد ﴾ .

لقد جاءت كتابات التفسير الاقتصادي ثم المادي متباعدة حذرة في (على هامش السيرة وفي الفتنة الكبرى) ثم اتسعت بعد ذلك في (محمد رسول الحرية) ونمط شبهاها حتى لقد حرص الكثيرون على أن يربطاوا بين هذه الآثار على ما بينها من فروق في الزمن ، واختلاف في المصادر والموارد في ادعاء كاذب بأن مثل هذه الكتابات حاولت أن تعتمد على الواقع لا على الخوارق وقد ظن أصحابها أن المعجزات يمكن أن تسلك فيما يوصف في الغرب بأنه أساطير ولا ريب أن رسول الله معجزات غير القرآن ولكن صلى الله عليه وسلم لم يجد الطريق سهلا إلى رسالته ولم يجد العرب مستعدين للنهضة فنهض بهم - كما يردد البعض - ومن هنا فإنه في نظرهم لم يكن في حاجة إلى معجزات أو خوارق .

ولا ريب أن هذا الادعاء باطل وأن الواقع حياة رسول الله بعد بعثته إلى هجرته خلال ثلاثة عشر عاما تكشف في وضوح مدى المعاناة والظلم والاضطهاد في عشرات الصور والمواصف مما يدهش معه أي باحث كيف واجهت قريش والعرب دعوة التوحيد وقاومتها .

ومن هنا نعجب من قول أحدهم حين قال : « ومحمد بهذا ليس في حاجة إلى خارقة تعينه على إقناع الناس بما يقول لأنه بما يقول إنما يستجيب لآمال الناس وأحلامهم » .

ولقد تردد هذا القول قديما في (النشر الفنى) وفي بعض كتابات (الشعر الجاهلى) وغيره وهو من زيف المستشرقين الذين يهدفون به إلى التقليل من عظمة الرسالة الإسلامية .

ولقد واجه العلامة فريد وجدى مثل هذه الشبهة حين قال :

« ان قريشا وهم أرقى القبائل لغة وفهمها ومكانة لم تقبل دعوة النبي الا رجالا ونساء لا يزيد عددهم على بضع عشرات . ولو كانت قريش أقرب العرب الى الحضارة لقابلت دعوة محمد بصدر رحب وأحلتها المكان اللائق بها ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وابطال دينهم .

« ان أتباع النبي الأولين اضطهدوا اضطهادا شديدا حتى هاجروا الى بلاد الحبشة وأن الجاهلين كانوا يهزاون بالدعوة للدين وبالداعي اليه ، وأن النبي لبث على هذا الحال من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة ، ولما أنسنت قريش من النبي الهجرة قررت قتله وأرصلت له ، ولما علم أهل مكة بافلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشاً وهي مظنة النجابة والفهم من العرب في ذلك العهد لم تكن (قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة) فان المجتمع الذى يقاتل الداعي للتجديد والنهوض بهذا التفور ويصبر عليه ثلاثة وعشرين سنة لا يزداد بعدها الا عنادا وتشديدا لا يمكن أن يوصف بأنه مجتمع كان مستعدا للنهوض وأنه سرعان ما نهض مع النبي صلى الله عليه وسلم .. » .

كذلك فان قريشا لم ترفض الاسلام لأنه يقضى على نفوذها الاقتصادي وحده ، ولكنها كانت تعلم أنه قضاء على كيانها الفكرى والاجتماعى والدينى جميا .

ومن هنا كان خطأ القائلين بالتفسيير الاقتصادي ، ذلك أن الأديان السماوية انما تغير المجتمع كليا ومن الأساس وهي حين تقصد أول ما تقصد فانما تبني النفس الإنسانية وتشكلها تشكيلا جديدا فيه صمود وصبر وقدرة على مواجهة الاضطهاد واحتمال

البلاء وتهيئها لعمل كبير توهب فيه الأرواح والنفوس ويجل عن المعاني المادية .

ومن هنا كانت دهشة المستشرقين وغيرهم لعظمة الفتح الاسلامى الذى صنعه هؤلاء الذين بناءً على محمد فى خلال ثلاثة عشر عاماً فى مكة وغير بهم الدنيا كلها وليس جزيرة العرب وحدها ، لقد نظروا إلى هذا الفتح الذى تم فى خلال بضع وسبعين سنة على أنه معجزة لم تفسر . نعم كانت تعرف قريش أن معارضة محمد لهم لن تفقد them نفوذهم الاقتصادي ولكنها ستلغى كيانهم الغاء كاملاً بكل فكره وماضيه وموافقه الاجتماعية والأدبية .

انه تغيير جذرى ليس الاقتصاد الا جانباً منه ، تغيير في نظام المؤودة وزواج الأخت وفي العلاقة بين الأهل وفي القضاء ﴿ ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا : اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ كان القوى اذا أذنب تركوه اذا أذنب الضعيف أقاموا عليه الحد ، الله تبارك وتعالى هو المشرع ، تجريد الفرد من سلطاته ومن الخضوع لمقاييس الهوى ، مقاييس جديدة ربانية لكل الأمور .

موقف جديد بالنسبة للقيم الكبرى : الحرب والعلم والكرم فهى ليست موجهة للظهور أو الاستعلاء أو الجاه ولكنها موجهة لله وحده ، شعار لا اله الا الله يغير المجتمع كله ويغير النفس الإنسانية على مختلف المستويات الدينية والاجتماعية والفكرية والنفسية الأخلاقية ، ليست حركة طبقة ضد طبقة ، ولا ثورة الفقراء على الأغنياء فقد اشتراك فىها الطبقات واشتراك فيها الأغنياء والفقراء ، وخرج الأغنياء عن مالهم ، وخرج الأبناء عن آبائهم وأنكروا تراثهم وفجورهم .

ويبدو ذلك واضحا في لقاء المشركين للنبي :
ان كنت ت يريد ملكا ملتناك علينا .

وان كنت ت يريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا
مالا . وتكون اجابة الرسول هي منطلق تفسير الاسلام :

« والله يا عم : لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في
شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ما
تركته » .

ولم يكن موقف الرسول موقف المزايدة أو المواجهة أو
الالتقاء في منتصف الطريق ، بل كان حاسما وكان رفضه لقيم
المجتمع القديم صريحة ، أما ما أقره الاسلام من قيم الجاهلية ،
فكان من أصفاها ، وتلك هي بقايا دين ابراهيم مما لا يتعارض مع
التوحيد .

وكان أبرز ما في دعوة الاسلام بناء الرجال على الصمود
والصبر والجلد وعزلهم عن مجتمع الجاهلية بمختلف ألوان فجوره
حيث أجرى الاسلام تغييرهم من أعلى الرأس إلى أخمص القدم
﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

كانت دعوة الاسلام مفاضلة بين الله وحده وبين الأهل والولد
ومتاع الحياة كله ، ولذلك فان عدد الداخلين فيها كان قليلا ،
وكانت المحن تتواتى لتصفيه هذا القليل ودحر صلابة عوده .

كان الاسلام يستهدف بناء انسان في سبيل فكره ، ليس له
في الدنيا نهمة ولا مطعم الا أن يقدم روحه خالصة لله .

ومن هنا تعجز مقاييس التفسير المادى للتاريخ أو التفسير الاقتصادي للتاريخ أن تحيط بذلك كله وأن تعرف الفرق بين هذه القيم المعنوية التي لا تقادس بالمقاييس المحسوسة .

وإذا كانت هذه القيم المعنوية لا تقادس لأنها ليست مادية محسوسة فإنها تستطيع أن تكشف عن نفسها بآثارها ، ان آثارها التي أنتجتها والتي يقف أمامها أصحاب المنهج المادى واجميين عاجزين هو الدليل عليها .

« ليس من المنهج العلمي الحق أن ينكر وجود القيم المعنوية أو الروحية أو النفسية لمجرد أنه لا يمكن أن يلمسها أو يراها ، كما تلمس أو ترى الأشياء المادية فان الأثر الذى تحدثه ينبع دليلاً محسوساً على وجودها » .

ان المقاييس المادية والاقتصادية لتعجز أن تفسر كيف يبكي العائدون من الغزوات لأنهم لم يستشهدوا ، ولا الذين لقوا آباءهم في صفوف الكفار فقتلواهم ، ولا الذين هاجروا وتركوا أموالهم وأولادهم واستأنفوا حياتهم في المدينة بدینار افترضوه ، ولا يستطيعون أن يفسروا كيف تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم ابن النبي ثم يقف النبي فيعلن أن الشمس لا تنكسف لموت أحد ، أو أن يقف النبي في حجة الوداع فيقول انه يلغى كل الربا ويضعه ، وأول ربا يضعه تحت قدميه هو ربا عمه العباس بن عبد المطلب ، أو يقول : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ، أو أن تووضع الحجارة المحماة على صدر بلا بلا يزيده ذلك الا أن يقول : أحد أحد .

كل هذا يعجز عن تفسيره المذهب المادي والمذهب الاقتصادي .

لقد كانت دعوة الاسلام شاملة تعجز عنها تفسيرات مذاهب الماديين ويصدق في هذا نموذجان من القول :

أما أحدهما فقول فيليب حتى :

« لم يسجل التاريخ أن رجلا واحدا سوى النبي محمد كان صاحب رسالة ، وبنى أمة ومؤسس دولة ، هذا الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة لا يمكن أن تنفصل الواحدة منها عن الأخرى وكانت إلى حد ما متوافقة يشد بعضها ازره بعض وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة وكان أبقاها زمانا حتى إذا رأى الناس في العالم اليوم وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعونفسه مسلما » .

أما النص الثاني فهو قول الأستاذ تريتون في كتابه « الاسلام عقيدته وعبادته » :

« اذا صاح في العقول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحا في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلا ذريعا حين يرحب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فيرى أنها تقع في هذا الشيء الجديد : ألا وهو الاسلام » ..

ويقول ولفرد كانتول سميث في موقف الأمم المختلفة من
تفسير التاريخ :

« الرجل الهندي لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده فالهندي مشغول بعالم الروح ومن ثم فكل شيء في عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة أو في عالمين منفصلين لا يربط بينها رباط والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشري المطبق في الأرض منقطع عن المثل الأعلى .

أما الماركسي فهو قوى الإيمان باحتمالية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية فهو لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن إلا بالمذهب الماركسي وكل ما عداه باطل والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكنه لا يوجهها .

أما المسلم فإنه يحس بالتاريخ احساساً جاداً ، انه يؤمن بتحقيق ملوكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً واقعياً عملياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره . ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردي أو جماعي وكل شعور فردي أو جماعي بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق » ..

* * *

خطأ التفسير المادى لحياة الرسول

هناك محاولة مستمرة منذ أربعين عاما تحاول أن تفسر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ الاسلام تفسيرا اقتصاديا أو ماديا ، وهى ترمى من ذلك الى أن يجعل من حياة الرسول بطولة عربية أو بطولة اقليمية أو بطولة أمة أو عصرية أو دعوة الى الحرية .

بدأت هذه المحاولات بكتابات عن حياة الرسول مجرد من المعجزات ، محاولة أن تفسر جوانب الوحي وما يتصل بكثير من نواميس الكون وقوانينه تفسيرا مجازيا أو مناميا ، أو غير ذلك ثم اتسع نطاق هذه المحاولات فوصفت حياة الرسول بأنها بطولة أو زعامة ولا ريب أن الهدف من نفي النبوة هو مقدمة لنفي الالوهية .

وأن الهدف من نفي النبوة هو انكار الوحي وبالتالي انكار رسالة السماء جملة ومن هنا جاءت المحاولات المتعددة لوصف البطولة الانسانية ووضع مقوماتها على نحو مختلف كل الاختلاف عن النبوة التي يختار الله تبارك وتعالى من يشاء لها من عباده ويعده في الأصلاب والأرحام جيلاً من بعد جيل .

١ - فإذا تقررت في نظر الناس قوانين معينة للبطولة الفردية البشرية أمكن الطعن في النبوة لأن هذه القوانين لا تتفق مع تقديرات الله التي تعلو على القوانين وتأخذ طابع المعجزات .

فالبطل في النظرية المادية ، لابد أن يصدر عن أسرة موسرة ، وعن ثقافة عالية ، وعن أبوة حكيمه أما بيوت الفقراء والأيتام والأميين فهى لا تصلح لانخراج البطل .

بينما تنقض النبوة هذه النظرية المادية تماماً كاملاً وتكشف عن كذبها وتضليلها وتكشف عن قدرة الله في إغباء النبي بعد فقر وتعليمه وهدايته بعد أمية وايوائه بعد يتم ، وفي هذا معنى المعجزة الالهية التي تنكرها نظرية البطولة الغربية الوافدة .

٢ - والاسلام يقرر المعجزة ، وهي الأمر الخارق الذي يحصل على يدنبي مرسلاً تأكيداً لصدق نبوته وليس في المعجزات منافاة للعلم المادى وإنما هناك قصور من أحجزة العقل والأدراك عن معرفة الأسباب التي انعقدت لها المعجزة ، فضلاً عن إيمان المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو صانع السنن والنوميس والقوانين وهو وحده القادر على خرقها على النحو الذي كشفت عنه الكثير من المواقف مع الأنبياء كالولادة لهم بعد سن الكبير للرجل واليأس للزوجة ، والولادة من غير أب كما حديث السيد المسيح عيسى ابن مرريم وكتجريد النار من خاصية الحرائق كما حديث سيدنا ابراهيم أو تجريد الخنجر من خاصية الذبح كما حديث سيدنا اسماعيل وهكذا وتعرف المعجزة في علم المصطلحات الاسلامية بأنها حقيقة تخالف القواعد العامة وتعارض المجرى العادي للحوادث وسببها فوق ادراك البشر وهي حقيقة تتحدى كل من يرتاب فيها .

وفي مقدمة المعجزات معجزة القرآن فهي معجزة قائمة أبد الدهر ، تمتاز عن معجزات الرسل والأنبياء بأنها باقية ، ومعجزة القرآن إنما تمثل في مطابقتها الدائمة لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل ، وصدق تحدياته للبشر في عجزهم عن معارضته ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وفي الآيات التي أثبتتها ولا تزال قائمة تعجز الملوك والدول والأمم عن مواجهتها .

٣ - ومن ناحية أخرى فان النبوة ضرورة أساسية للحياة البشرية وبناء الإنسان الفكري والاجتماعي فهي التي تحسّم عشرات القضايا المصيرية التي تبقى بلا جواب عندما تقوم الريبة والشك في حقيقة الوحي .

ان الوحي هو الذي يضع النقاط على الحروف في تلك الشبهات التي تثير عوامل القلق والتمزق والصراع النفسي الذي يواجه الآن مجموعة الأمم التي أحدثت وفصلت ما بينها وبين نور الله .

٤ - ان عجز العقل عن فهم الغيبيات وما يتصل بها يكشف عن ضرورة الوحي والنبوة فالعقل غير كاف وحده وغير قادر وحده .

« والوحي يعارض العقل ويؤكّد حكمه ويجعله موثوقا فيما يصل العقل إلى معرفته فيكونا دليلين على مدلول واحد يرشد العقل وبيهديه فيما لا يستقبل بمعرفته مثل المعاد ويكشف عن وجود الأشياء التي لا يدرك العقل كنهها ومنهجها » .

وقد التقى الوحي والعقل في القرآن لأول مرة في الفكر الإنساني والاسلام وأهله يؤمنون بأن المعرفة الإنسانية ليست قاصرة على معطيات الحس ، وعلى حد تعبير الشيخ محمد عبده وقد نقلناه عنه « قد يعرض الدين شيئاً يتتجاوز حدود الفهم ولكن لا يعرض شيئاً يتتجاوز حدود الادراك مطلقاً » .

٥ - ولقد امتدت النظرية الواقفة في البطولة والوحي والنبوة إلى القول بأن القرآن انطباع في نفس محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو ليس كذلك أبداً ، فهناك فارق واضح وعميق بين كلام النبي محمد ونظم القرآن الكريم يعرفه أهل البيان واللغة ويعرفون بعده ومداه .

وليس صحيحاً أن القرآن فيض من العقل الباطن في محاولة عوى الاشادة بعقرية محمد وأمعيته وصفاء نفسه ولا ريب أن محمد كل صفات السمو النفسي ولكن وصفه بالنبي نسبة إلى لوحى الالهى هي أكبر معطياته .

ومثل هذا القول إنما يرمي إلى محاولة خادعة لقطع الصلة بين المسلمين والقرآن فإنه إن كان كلام محمد كان من عمل بشر .

وبذلك يفقد معناه الأسمى وجلاله الأعظم ويفقد « ثباته » الذي يعطيه تلك القدرة الضخمة على أن يكون الأساس الذي يرتبط به كل فكر والقاعدة التي يمتد عليها كل بناء والاطار الذي نجري فيه كل حركة وهناك أدلة كثيرة تدحض هذه الدعوة وأبسطها « أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فمن الذي أطلعه على أن ما في القرآن مصدق لما في التوراة » « وكان علمه بشؤون قومه لا يزيد على علم غيره » فمن الذي أطلعه على تاريخ الأمم وقصص الأولين .

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمنيك اذا لاراتب المبطلون ﴾ .

٦ - ولقد جلى الباحثون المسلمين ظاهرة الوحي : وأكدوا أنها ليست ظاهرة نفسية داخلية تبعث من كيانه صلى الله عليه

وسلم وانما هي حقيقة خارجة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بده الوحي ومشاهد أخرى»^(١).

«وانما رأى محترفو الغزو الفكرى فى (ظاهرة الوحي) : المنبع الأول للحقائق الدينية والكليات الاعتقادية ورأوا أنهم اذا استطاعوا تكدير صفاء هذا المعين الأول أمكنهم تكدير صفاء كل ما يتفرع عنه واقتحام أسباب الدس والتشويش عليه .

«من أجل هذا زعم بعضهم أن الوحي فى حياته صلى الله عليه وسلم انما كان نوعا من الالهام الخفى ، وزعم آخرون أن ذلك كان اشراقا روحيا معينا وأصرت جماعة أخرى على أنه كان يصاب بالصرع » .

«والعجب الرائع حقا فى حياته صلى الله عليه وسلم أن أمر الوحي له قام على أساس وحقائق تصف هذه الأوهام صفات تلقيها فى متأهات الحمق والجنون » .

٧ - ولقد تواجه الفلسفات الغربية حقيقة النبوة وظاهرة الوحي فتصفها بأنها وصاية على الإنسان الذى بلغ رشد و أصبح فى غير حاجة الى وصاية ما .

وذلك قول من الزييف المسرف فى احسان الظن بالبشرية .

فهل استطاعت البشرية حقا بعد هذا الزمن الطويل الذى قطعته^(٢) أن تكون راشدة ، الواقع الذى ثبته وقائع التاريخ

(١) راجع كتاب قصة السيرة للدكتور محمد سعيد البوطى .

(٢) بتصرف عن بحث للأستاذ محمد المجدوب .

وأحداث الزمن أن البشرية ما زالت عاجزة عن حماية نفسها من المطامع والأهواء والحروب والمذابح والمظالم ، بل لعلها قد بلغت بفضل تقدم العلم قدرًا أكبر فهى التي تمضى في تهديد الأمم الضعيفة بقوى الذرة والتكتولوجيا ، ولم يستطع تقدمها العلمي أن يرد إليها شيئاً من الإيمان أو العدل أو السماحة أو الارتفاع فوق الأهواء . ولذلك فهى لا زالت في حاجة إلى رعاية رسالات السماء وفي أشد الحاجة إلى الوحي والنبوة ، لقد تقدم الإنسان في مضمون السبق العلمي ، ولكن عجز عن فهم نفسه وحماية كيانه من المطامع وما تزال أهواؤه تحول بينه وبين توجيه هذه المعطيات لخير الإنسان .

ومن الحق أن يقال أن الإنسان لم يزل بعد عاجزاً عن أن يكون أميناً على نفسه أو جنسه ولن يستطيع ذلك إلا إذا آمن بالوحي والنبوة .

٨ - في ضوء هذا كله نظر إلى تلك المحاولات التي جرت في تزييف سيرة الرسول :

أولاً : بإضافة الأساطير القديمة في (هامش السيرة) .

ثانياً : بإنكار أن الآسراء كان بالروح والجسد في (حياة محمد) .

ثالثاً : إنكار النبوة والوحي في (محمد رسول الحرية) .

رابعاً : وصف النبي بالعقبالية دون الرسالة في (عقراوية محمد) .

ولا ريب أن أبلغ أخطاء وصف النبوة بالعبرية إنما هو في تعميم هذه الصفة على شخصيات أخرى لم تنفرد بالنبوة مما تجعلها تبدو كأنما هي محاولة إلى فرض مفهوم البشرية على الرسول الذي تفرد بالعصمة والوحى وامتاز بهما عن سائر صحابته .

ولا ريب أن العبريات وقعت تحت سلطان الفكر الغربي الذي تشكل الكاتب في أحضانه ثم نفذ منه إلى دراسة الإسلام دون أن يقدر مدى الفارق الدقيق والعميق بين ذاتية الإسلام في مفاهيمه ومناهجه والعوامل التي شكلت أهله ، ولم يلتفت أيضاً إلى تميز النبوة الوافر فالنبي في عصرية محمد إنسان له مواهب وملكات منفصلة تماماً عن وحى السماء . وحين تجري مقارنته بنابيون أو غيره لا يلتفت تماماً إلى اختلاف النوع وانعدام الصلة حتى ليبدو اغفال الوحى اغفالاً كاملاً في دراسته . ولم يرد اعجاب المسلمين بالرسول وحبهم له دون حدود إلى الإسلام نفسه وإنما رده إلى شخصية الرسول .

يقول غازى التوبة في دراسته عن العبريات : « فلو اقتصر دخول المسلمين على اعجابهم بشخص الرسول وحبهم له وافتتانهم به لانتهت الدعوة الإسلامية بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته ريثما يزول سحر الافتتان ولكن الدعوة الإسلامية استمرت قرونًا طويلة وما ذلك إلا لملاءمة الإسلام للفطرة البشرية التي انجذبت إليه في زمن الرسول ثم استمر الانجذاب في الأزمان التالية » .

٩ - غایة القول أن اعتماد كتابنا العرب والمسلمين في

النظرة الى النبوة والبطولة في ضوء تفاسير غربية انما يحجب عنهم شيئاً كثيراً من الحق .

ذلك أن الغربيين عن طريق مفاهيم عقائدهم وفكرهم لا يفرقون بين الالوهية والنبوة بينما نحن نفرق بينهما تماماً .

كذلك فهو يرى أن الكتب المقدسة كتبها الرسل ونحن نؤمن بأن الكتاب المنزل هو وحى من الله وليس من عمل النبي .

كذلك فهم يعيشون في إطار مفهوم الوثنية اليونانية القائمة على عبادة البطولة ورفع الفرد إلى مصاف الآلهة وأنصار الآلهة . بينما يقصر المسلمون العظمة كلها والعبودية كلها لله سبحانه وتعالى .

كذلك فهم يجسدون البطولة في تمثيل بينما لا يؤمن الإسلام بتجسيد البطولة ويركز مفهوم تقديرها في توجيه العمل البطولي نفسه خالصاً لله .

وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قيل من أن الشمس كسفت لموت ابنه واتخذ عمر من الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامي ولم يجعله شبيهاً بالأديان الأخرى حين اتخذوا مولد أنبيائهم .

١٠ - ان أخطر ما استدرج إليه الكتاب المسلمين والعرب من التبعية للمناهج الغربية في تقدير البطولة أو تفسيرها ذلك الاتجاه نحو الوراثة والطبائع الفردية بينما يقوم منهج تفسير البطولة الإسلامي على تقدير الأثر الخطير الذي تحدثه التربية والعقيدة في

توجيه الانسان وتحویله من حال الى حال ومن هنا يبدو خطأ الاعتماد على رأى لونبروزوا ومدرسته في تكوين البطل أو العقرى ومن التعسف البالغ رد عظمة أبي بكر وعمر الى ملکاتهم دون تقدير أثر الاسلام في تغيير النفوس واعادة تشكيلها مرة أخرى .

ولا ريب أن العقيدة الاسلامية هي التي حولت هذه الشخصيات وأعادت صياغتها من جديد في ضوء التوحيد وأخرجتها من شخصيتها القديمة وأن أى مقارنة بين حياة عمر قبل الاسلام وبعده تكشف عن ذلك بوضوح ، كذلك يبدو هذا في نماذج أقل بطولة : يظهر ذلك في تحول الخنساء مثلا .

ومن الحق أن يقال أن هذا الزيف في فرض منهج أو مذهب في تفسير النبوة على أنها بطولة أو عقرية أو دعوة الى حرية انما هو من أعمال الأيديولوجية التلمودية التي تهدف الى تدمير قيم الوحي ورسالات السماء .

الباب الأول

التاريخ في مفهوم الاسلام

يقارن الاستاذ ولفرد كاتنول سميث في كتابه (الاسلام في التاريخ الحديث) بين احساس الهندي والمسيحي والماركسي تجاه التاريخ واحساس المسلم تجاه التاريخ فيقول أن الرجل الهندي لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس ، والهندي مشغول دائمًا بعالم الروح ، عالم اللانهاية ، ومن ثم فكل شيء في عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة اليه شيء ساقط من الحساب . أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشري المطبق في الواقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود ، ويسير هذان الخطان في نفسه متباورين أو متبعدين ولكن بغير اتصال ، والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر ، وهبوطه وانحرافه ، أما التاريخ في نظر الماركسي فهو اليمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن في هذا العالم الا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء

عداه باطل ، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها ، أما المسلم فانه يحس بالتاريخ احساسا جادا ، انه يؤمن بتحقيق ملکوت الله في الأرض ويؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر في الأرض على مقتضاه يحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو جماعي ، وكل شعور فردي أو جماعي ، بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق . والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية لتحقيق ملکوت الله في الأرض ، ومن ثم بكل عمل وكل شعور ، فرديا كان أو جماعيا ذو أهمية بالغة لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر ، فالمفهوم الإسلامي واضح الإيجابية ، بينما غير المسلم يضحي بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حي وسامح لها بالمرور ، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أعلى قربان يتقدم به إلى الله . فإن المسلم حين يضحي بنفسه ، ففي حسه أن هناك نظاما الهيا يراد أن يطبق في واقع الأرض ، وفي حسه وهو يضحي أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الإمام .

هذه العبارات للكاتب الغربي تقرب من الحقيقة وتكشف عن الفارق العميق بين فهم المسلم للتاريخ وبين فهم الطوائف الأخرى ، ويتابع (اليان وايدغراء) هذا المعنى حين يقول : إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ هي نظرة بناء ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحي (القرآن) فإن ارادتها حينئذ يتطابق وارادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الاخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن الامر لارادة الله ، وقد

قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ ، ممثلاً بالفيلسوف ابن خلدون وكان أول فيلسوف حل درجات تأثير المحيط والد الواقع النفسية التي تعمل عملها في الحياة الإنسانية ، وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها ، ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على اقطار فلاسفة التاريخ المسلمين : المفهوم الحركي ، والمفهوم القدري وكلها تظهر بوضوح في تقلبات القوى الاجتماعية وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بما هو وقتى وفوري وقدمو تعاليم انهزامية وانعزالية ، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس الا وهمما .

ويؤكد الاستاذ تريتون فى كتابه « الاسلام : عقيدته وعبادته » ان التفسير المادى لا يصلح لفهم تاريخ الاسلام ، يقول : اذا صحت العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحًا فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فان هذا التفسير المادى يفشل فشلاً ذريعاً حين رغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشيء الجديد : ألا وهو الاسلام » .

وهذا ما نريد أن نصل إليه : فى أن أي محاولة لتفسير تاريخ الاسلام بغير التفسير الاسلامى للتاريخ محاولة باطلة وأن جميع مذاهب التفسير التاريخى : المادية والاقتصادية والجغرافية والمناخية .. الخ لا تستطيع أن تستوعب مفهوم التاريخ الاسلامى ولكل أمة وعقيدة مقاييسها التى تشكل قانون تفسيرها .

واننا لنجد الآن محاولات لتفسير تاريخ الاسلام تبعت من النظرية الغربية الليبرالية ، وهذه قاصرة ، ومن النظرية الماركسيّة وهذه قاصرة أيضا .

ومن النظرية المادية وهذه قاصرة أيضا ، ذلك أن الاسلام الذي يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة ، والحياة والموت ، والدنيا والآخرة والنفس والجسد ، والثواب والمتغيرات والكلى والجزئي ، لا يمكن أن يفسر بمنهج جزئي سواء أكان ماديا أم روحيا خالصا ، ولذلك فان هذه المحاولات كلها التي تحاول أن تضع الاسلام في صف الديمocratie مرة ، أو الاشتراكية مرة ، أو الحرية مرة ، كلها قاصرة فالاسلام له ذاتيته الخاصة وتكوينه الجامع المنفرد الذي قد يتلقى ثمة مع جانب من هذا أو ذلك ولكننه لن يكون الا هو وحده الذي تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن استيعابه وفهمه ولعل هؤلاء الثلاثة : كانتول وجراي وترتيتون قد ردوا على هذه المحاولات وهم كتاب غربيون عرفوا حقيقة ذاتية الاسلام وطابعه المميز .

واجه التاريخ (الاسلامي) حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو الثقافي تستهدف الى اثارة الشبهات والشكوك حوله ، بقصده وضعه موضع الازدراء والانتقاد في نظر أهله ، وحتى يفقد أهميته من حيث أنه قوة ابعاث ويقظة ، وكان هدف التغريب ينصب على (اختلاف تاريخ اسلامي منفر) عسى أن يتزعزع من المسلمين ثقتهم في ماضيهم الاسلامي وفي أنفسهم كمسلمين ، ويسلخهم من تراثهم الفكري وتاريخهم الاسلامي فيصبحون بلا ماض ، فتضعف معنوياتهم ، وبذا تسهل السيطرة

عليهم فكريا وثقافيا ، مقدمة للسيطرة عليهم عسكريا واقتصاديا ، وقد جرت المحاولات لاحلال مناهج الغرب في تفسير التاريخ الاسلامي بديلا للدراسات الاسلامية ، وفرضت كتب الغرب في المدارس والجامعات ، وجعلت مناهج الغرب في دراسة التاريخ هي الجواز الى تخريج المؤرخين العرب والى صدارتهم .

وقد امتلأت هذه الدراسات بالتطاول على اعلام الاسلام وقادته وتوباعه والتشهير بهؤلاء العظام في كل عصر ، عن طريق تزييف طائفة من الاخبار المشكوك فيها والقصص والاعتماد على مصادر غير أصلية أو مطعون في صحتها لالتماس هذه الشبهات حول بطولات رجال التاريخ الاسلامي وأباح بعض المتتصدرين في الجامعات « للخيال أن يذهب مذهبه في ابتكار الصور التي تقرب للناس حقائق التاريخ » وبذلك جرى تصيد الروايات من هنا وهناك لمحاولة دعم آراء محرفة معدة أساسا لاثارة الشبهات وما تزال هذه المحاولة تتخذ للتآمر على التاريخ الاسلامي قديما وحديثا .

فقد أشار الشيخ أبو بكر بن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) إلى هذه المراجع المشبوهة حين قال : لتحذرؤا من المفسرين والمؤرخين وأهل الأدب فأنتم أهل جهالة بحرمات الدين وعلى بدعة مصرىين فلا تبالوا بما رروا ، ولا تقلوا رواية الا عن أئمة الحديث » .

ولقد رسم مؤرخو المسلمين منهجه البحث التاريخي على نحو علمي صحيح ، وحدرروا من خطر ذوى الاعتراض وقال الامام تاج الدين السبكي : لا بد أن يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا

بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما يحمله على الضغط منه وربما كان الباعث له على الوضع من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال فيهم أو يقصرون في الثناء عليهم (طبقات الشافعية) .

وئمة خطر آخر خطير واجه التاريخ الإسلامي في العصر الحديث : ذلك هو مفهوم التاريخ في الفكر الغربي فقد ظهرت عدة تفسيرات تحاول أن تفرض نفسها على فهم التاريخ منها : التفسير الجغرافي ، والتفسير البيولوجي والتفسير الاقتصادي والتفسير الاجتماعي والتفسير النفسي وقد حاول كل من الباحثين أن يؤكّد تفسيره ويعليه على كل العوامل ويرى البعض أن العامل الجغرافي هو العامل الأول اعتماداً على التضاريس الأرضية ومصادر الثروة وتوزيع الحياة والاحوال الجوية ، ويرى غيرهم أنّ أثراً الوراثة هو العامل الاوحد أو الاهم .

ويرى آخرون أن عامل البيئة هو القوة المؤثرة في حياة الناس .

ويرى ماركس : أن العامل الاقتصادي هو العامل الاساسي في حركة التاريخ .

ويرى توينبي (التفسير الاجتماعي والحضاري) أن مواضيع التاريخ الصحيحة هما المجتمعات الإنسانية ومدنياتها لا الشعوب والأقطار ويرى فرويد أن العامل الأساسي ليس سوى أزمات نفوس الأفراد التي أدت إلى الانقلابات الهائلة في التاريخ ويرى أصحاب نظرية التفسير البيولوجي للتاريخ : ان التاريخ يتناول حياة الإنسان

من حيث هو انسان ويبحث في أثر الزمن فيما هو انسانى بحث ، والبيولوجيا هي البحث عن أثر الزمن في الكائنات الحية من حيث النمو والانحلال والتطور .

وهناك تفسير (هيجل) السياسي ، وكل هذه النظريات مجرد احتمالات وفرض ، ونظارات محدودة قاصرة ، ومركزة على جانب واحد ولعلها جمیعا تمثل مجموع العوامل المؤثرة في التاريخ على أقدار معينة وادوار متفاوتة ، ولقد عجزت كل نظرية من هذه النظريات في أن تتحقق الغرض أو أن تثبت سيطرتها بمفردها على تفسير التاريخ .

أما مفهوم الاسلام لتفسير التاريخ فهو لا يأخذ بعامل واحد من هذه العوامل ، ولكنه مفهوم جامع يستمد طابعه الاساسى من الفهم لارادة الله العليا المحيطة بالكون والأشياء ، وبالترابط الوثيق بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وبين ارادة الانسان ذات الامر الجوهري في التعبير ، وبين العوامل المادية والروحية والنفسية جمیعا ، فليس لعامل واحد مهما كان قدره الانفراد بالتأثير وترى النظرة الاسلامية ان العوامل المعنوية : روحية وأدبية ونفسية لها آثارها البعيدة التي تزيد كثيرا عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي يركز عليها الفكر الغربي في مرحلته المادية التي يعيشها في هذه القرون الاخيرة .

يقول وليفرد كاثنول سميث : ان الاسلام يرى لكل حادث دنيوي تفسيرين ، ويقيسه بمعاييرين : أحدهما وقتى والآخر أبدى ، ومع أن الاسلام والماركسية يعطيان أهمية بالغة لتطور التاريخ

وتحتميته فإن الاسلام رغم اعترافه بمعجزى التاريخ الحاسم الا انه يرى أن هذا المعجزى لا يذوب في خضم التاريخ نفسه بل يوحد من القيم والانماط ما يعلو على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن يكون في ضوء هذه القيم - والمقصود بذلك هي (القيم الروحية) التي لا وزن لها في الماركسية .

وتختلف وجهات النظر كثيرا بين التفسير الغربي (بألوانه المختلفة) للتاريخ وصراعاته المتعددة وبين التفسير الاسلامي .

أولا : ومن وجود الاختلاف : ان النظرة الغربية المبنية في مختلف نظريات تفسير التاريخ (وخاصة النظرية الماركسية) يعتبر أن « تاريخ أوروبا » وحده هو تاريخ العالم ، أما بقية أجزاء العالم وحضاراته وتاريخه فهي ليست موضع أى تقدير ، كذلك فهي تنظر إلى (الدين) بعامة نظرة مظلمة ، موقف غربي خاص بالغرب وحده لا تشرك معه أمم الشرق أو أى أمة أخرى يرجع إلى ذلك الصراع الذي وقع بين الكنيسة وبين النهضة الاوروبية الحديثة ، وقد تأثر فلاسفة التاريخ جميا بهذين العاملين : كما تأثر ماركس وإنجلز بالنظرية المادية إلى التاريخ ، لارتباطهما بدارون وفولرباخ ، فقلبا فلسفه هيجل رأسا على عقب ، كما كانا لا يعتبران بالنظرية الاسلامية ، وكانا يصدران عن المعركة الاوروبية في رأيهما في الدين بأنه أفيون الشعوب ، هذا الرأي محدود يحدد التجربة التي عاشوها ، والتفسيرات التي وجدوها في بيئتهم .

ولعل من أسوأ الظلمات التي تحول دون فهم الحقيقة البشرية هو الرأي الذي يحمله التفسير المادي للتاريخ بأن الأفكار

والمشاعر الانسانية والبشرية ليست سوى مظهر من مظاهر العوامل المادية في المجتمع .

ثانياً : عجز التفسير التاريخي الغربي) وهو المادى المصدر) عن استيعاب حقائق التاريخ الاسلامى التى تعلو على التصور المادى فسرعة انتشار الاسلام على هذا النحو المذهل واستطاعته فى خلال فترة نقل عن قرن من الزمان أن يسط جنابه من حدود الصين الى حدود فرنسا ، هذا فى تقدير التفسير الغربي مشكوك فيه ذلك لأن الفكر الغربى لا يؤمن بأثر : الایمان العميق قادر عن طريق الارادة الانسانية الى التغيير الواسع ، كذلك فالتفسير الغربى يعجز عن فهم واستيعاب قاعدة اسلامية أساسية هي « كم من فئة قليلة غلت فئة كثيرة بإذن الله» ذلك أن التقدير المادى يرى أن الكثرة هى الغالبة أبدا ، بينما يضع الاسلام قوة جديدة مضاعفة الى قوة العدد والعدد هى قوة الایمان ، وقد أكدت الفتوح الاسلامية هذه الظاهرة بما لا يدع مجالا للشك ، فقد ثبت فى مختلف الغزوات والمعارك التى دخلها المسلمون أن عددهم فيها كان أقل من عدد خصومهم بمراحل ، وإن عدد عدوهم كان مضاعفا أكثر من مرة بل مرات ، فالنصر هنا يرجع الى عنصر الایمان الذى لا يعتد به فى الحساب عن التفسير الغربى للتاريخ .

ثالثا : ظاهرة التعصب الواضحة فى التفسير الغربى للتاريخ الاسلامى .

وهذه الظاهرة طبيعية فهى مستمدة من الاختلاف بين الاديان ومن اختلاف وجهات النظر ، ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب ، ومن وجهة نظر الاستعمار الذى يرى أن الغرب هو

الجنس الاييض ممدن البشرية وان بلاد الاسلام هى العناصر الملونة التى يرى أنها أقل فى الدرجة والقدرة والكفاية .

ومن خلال نظرة التعصب الغربى تجرى تفسيرات خاطئة ، فى مقدمتها الادعاء بأن « انتشار الاسلام جاء بالسيف » وهى مبطلة ، والحق أن الاسلام لم يرفع السيف الا دفاعا عن كيانه حين يتعرض وجوده للخطر ، وذلك فى مقاومة محاولات المتآمرين عليه .

* * *

وهكذا نجد أن الاسلام فى عقيدته وحركته له ذاتية خاصة تعجز عنها النظريات التى تحاول ان تطبق مفاهيمها لتفسيره .

ومن هنا فلا بد أن يكون للتاريخ الاسلامى تفسيره الاصيل .

وان كل ما يشوب النظرة الغربية من شبكات حول حركة الاسلام يسقط حين يوضع الاسلام موضع التقدير الصحيح : وهو معرفة طبيعة الاسلام وطبيعة الاسلام أنها عقيدة تجمع بين الواقع والمثال والدنيا والآخرة والقلب والعقل ، ولها مرونة واضحة وافق منطلق واطارات واسعة تجعله قادرا على مواجهة الحضارات والثقافات المختلفة على قاعدته الاساسية ، مع سماحته الواضحة في اتاحة الفرصة لاهل البلاد في حكم أنفسهم ، حرية العبادة دون فرض عقيدته بالقوة ، وكون الاسلام ليس دينا فحسب ، بل نظام مجتمع ومنهج حياة ، الدين بمعنى العبادة جزء منه وانه استطاع أن يستوعب حضارات الامم وثقافاتها وأن يهضم الصالح منها ويسيغه وينميء في اطار مفهومه الاصيل : « التوحيد » وانه وفق بين العلم

والدين ، وبين الخلق والسياسة ، ومن هنا فقد كان التوحيد أبرز عوامل اندفاع التاريخ الاسلامي بأجنبته : العدل والاخاء والرحمة والكرامة والاعتزاز بالله ، وقد بدا الطابع الانساني والتزعة العالمية واضحة في حركته منذ اليوم الاول .

هذا فضلا عن بقاء القرآن : وهو الوثيقة الكبرى له سلية من الريف ، ومع وضوح شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته وتصرفاته وأقواله وأعماله على نحو يكاد يكون كاملا ، وكذلك وضوح شخصيات أبطال الاسلام ومواقفهم وتفاصيل هذا التاريخ كله ودقائقه على نحو علمي دقيق .

ولقد كان الاسلام هو الدافع الاول والباعث الاساسى الى توحيد العرب واندراجهم من شبه جزيرتهم ، وانتشارهم فى الارض ، ولم تستطع الاحداث الكبرى فى تاريخ الاسلام أن تغير الطابع الاصيل للنظم الاساسية ولكنها جددت البناء الخارجى وأعادت تشكيل الفروع وصياغتها فى اطار الاسلام لم يصاحبها روح التعصب والخضوع الاعمى وانما صاحبها اقتناع مستنير وایمان عميق .

ولما كان الاسلام نفسه يقوم على أساس النظرة الجامعية فانه لا يمكن أن يفسر تاريخه الا من خلال مفهوم جامع مترابط .

ولقد ظل التاريخ الاسلامي خلال طريقه الطويل مرتبطا بالتاريخ الانساني ، أخذها وعطاء ، وكان له آثاره البعيدة فى التغيرات الواسعة التى عرفتها البشرية ، من حيث تحررها من عبودية الوثن وعبودية القيصر والامبراطور والفرعون ومن حيث اهداء

الاسلام لها المنهج التجربى الذى نقل البشرية الى عصر العلم ، وتاريخ الاسلام وحدة كاملة متصلة الحلقات ، وهو مراحل متسلسلة يسلم بعضها الى بعض ذلك لانه يصدر عن قوة واحدة مؤثرة فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ولقد أشار الباحثون الى ان الاسلام لا تخوب له نهضة حتى تبدأ نهضة اخرى ، وان الاسلام اثر في كل الاحداث العالمية منذ وجوده الى اليوم وان تأثيره سيظل مستمرا لا يتوقف فما زال الاسلام ينمو ويزداد اتساعا حتى شمل القارات الخمس الان ، ولن يتأنى لقوه مهما عظمت ان تقضى على الاسلام ، وان كانت تستطيع ان تذيل منه وأن تؤثر فى وجوده بالازمة او بالغزو او بالتجريب ، ولكنه قادر على استعادة قوته ودفع الضرر عنه بالتجدد من الداخل ، ولن يستطيع اي مؤرخ منصف ان يكتب تاريخ البشرية متجاهلا تاريخ الاسلام وأثره البعيد فى مجريات الاحداث .

رابعا : كانت أخطر محاولات « التغريب » تتركز في المنهج الذي فرضته الارساليات التبشيرية التي استوعبت الشباب المسلم في العالم العربي في العصر الحديث والذي يقول : انها تلقن التاريخ وتعلم طلبتها أن يبحثوا في التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء أي تطبيقه على نواميس الاجتماع الجديدة .

ولا ريب أن هذا منهج في النقد التاريخي قد انبثق من الفلسفة المادية التي ترى أن هناك قوانين جبرية تحكم تطور التاريخ الانساني . وهي فكرة قد انكشفت على مدى الزمن فسادها وتبين أن من قالوا بها قد انحازوا الى (عينات) من الواقع

التاريخية وجوهها حسب أهوائهم ، ولكن الارساليات تجد في هذا المنهج أهمية خاصة وسلاماً لها لأنها تستطيع به أن تضرب تاريخ الاسلام وتزيف وقائعه وتشكك في بطولاته وهذا هو هدفها الأساسي .

ولا ريب أن النظرة الصحيحة للتاريخ يجب أن تتضمن معها الحتمية والجبرية جمعاً : ذلك لأن الإنسان صانع التاريخ له حريته و اختياره وأثره الخاص في كل ما يقدم عليه من فكر و عمل ، فهو كان وليد الأسباب والعوامل الطبيعية فحسب ، ليس له يد في تحويلها أو توجيهها ، لو كان كله نتيجة حتمية وليس بشكل من الأشكال فاعلاً مسيباً لما كان ثمة موجب لاي حكم يصدر منه بل لم يكن ثمة مصدر لهذا الحكم كذلك لو كان مسيراً في حياته كل التسيير ، مجبراً على كل عمل من أعماله لضاع معنى الحكم وما يتضمنه من ثواب و عقاب » .

ان حكم التاريخ ، بل أي حكم يتنافى مع الحتمية والجبرية المطلقة ولا يقوم الا اذا اعترف الإنسان بحريته و اختياره وعقيدته على تحقيق هذا أو ذاك من الامكانات الكامنة في ذاته والمنفسحة أمامه .

فحكم التاريخ مرتبط ارتباطاً محكماً بهذا المعنى الانساني : معنى الحرية ، فهذا المعنى بمقدار انكشافه وتجليه وتحقيقه يتلخص جوهر الجهد الانساني المتمثل في التاريخ وبهذا المعنى أيضاً يستطيع الإنسان أن يحكم في التاريخ ، ويفصل بين التراث الايجابي الباقى الحافز ، والتراث السلبي الرائل .

ومعنى هذا ان الاتجاه الذي ركزت عليه الارساليات التبشيرية فاسد علميا وهو محاولة من محاولات هدم التاريخ الاسلامي وبطولاته وعبرته في نفوس الشباب المسلم والهيلولة دون ان يؤدى هذا التاريخ دوره في الاجيال الجديدة ليقدم لها قدرته على مواجهة الاحداث المتطرفة ويكشف لها الاخطر المحيطة ويدفعها الى الطريق الصحيح لمواجهة الغزو الذي يتجمع له قوى الاستعمار والصهيونية والماركسيه .

ولقد تلقت الصهيونية العالمية محاولة تزييف التاريخ وتفسيره على نحو مسموم كما فعلت الماركسية حين أجرت عليه منهج التفسير المادى .

أما الصهيونية فقد عملت الى الاستيلاء على عدد كبير من كراسى الجامعات الغربية ، والعمل على تبرير الغزو الصهيوني للبلاد الاسلامية والسيطرة على فلسطين ، وإثارة الشبهات حول الامة العربية وتاريخها ومكانتها ، وحول دينها وعقيدتها ، باعتبارها القوة المواجهة لها في الصراع ، وأشارت الغرب على الشعوب العربية والاسلامية وذلك باعادة عرض صور من احداث الحروب الصليبية وغيرها على نحو مضلل ، وهم الذين يحاولون الان اثاره مخاوف أوربا والغرب نحو العرب واذمارهم ونهضتهم كوسيلة لتبني الرأى العام الغربي ضدهم وهم الذين يقفون الان من وراء تجديد الكتابة عن الفرق الاسلامية وعن الثورات التي قام بها الزنج والقراطسة والباطنية ودفعهم بعض أذنابهم من التغريبيين لتصويرها بصورة أنها ثورات اسلامية ، وقد ركز مؤتمر بليتمور الصهيوني الذى عقد عام ١٩٤٢ حول هذا الاتجاه وكل ما يتزداد الآن وينشر

عن الحركات الباطنة كالقرامطة والاسماعيلية والجلح هو من صنع هذا الاتجاه في محاولة تصوير هذه الفرق والشخصيات على أنها من دعاة العدل بينما هي من صميم دعاة الانتفاضة على الدولة الاسلامية والعمل على هدمها .

ويتضمن هذا التأثير بما نراه في كتب التاريخ المدرسية من محاولة تصوير رجال التبشير والارساليات الذين وفدوا على العالم الاسلامي في أوائل حركة الاستعمار البرتغالي والاسباني على أنهم أبطال الكشوف الجغرافية ، أو ما نجده من تمكين في كتب التاريخ الاسلامي على مسائل الخلاف بين معاوية وعلى وابراز الزوايا الحادة في المواقف والاحداث حتى يبدو التاريخ الاسلامي كله وكأنه صراع سياسيين محترفين على معانم الحكم او انه تضارب بين الدماء والعروق ، بينما لا ترى مثل هذه للصور في الصفحات الخاصة بتاريخ الفراعنة .

ويتصل بهذا ما تغص به دائرة المعارف الاسلامية (التي كتبها مجموعة من المستشرقين اليهود والمسيحيين المتعصبين) وكأنها مجموعة افتراءات واتهامات حاقدة على الاسلام وينى الاسلام والقرآن وهي تحاول أن تصور الاسلام وكأنه من صنع محمد وايماته وتصوراته ، وما كتبه بروكلمان وغيره وكلها تحاول أن تصيب رجال الاسلام وحكوماته بالاتهام والتشبه والهوى ، وفي هذا المعنى يقول الاستاذ يوسف العشى : لقد حاول الكثيرون ان يصمووا تاريخنا بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم ، غير أن النظرة الصحيحة الى التاريخ من خلال أعموامه العديدة تعطي البيان الواضح عن أن هذه الوصميات لا

أصل لها صحيح ، وان كل ما فى الامر ان هناك « تفاعلات » فى المجتمع الاسلامى العربى كانت تأخذ طريقها ولا بد أن تأخذ طريقها فى ذلك المجتمع ، وان هذه التفاعلات سنة من سنن الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ، وهى تفاعلات تحدث فى كل أمة ، بل ان الامم الاخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمين والعرب ، وتاريخ الامم دائمًا ممزوج بالحروب والفتنة ، والاضطرابات أكثر من التاريخ العربى .

ولقد كان لهذه المحاولة الخطيرة التى ما تزال مستمرة أثراًها البعيد فى نفس الشباب المسلم الذى ينظر الى تاريخه وزعماءه من خلال وجهة نظر تغريبية ذات هدف واضح فى هدم المقومات الحقيقية للإسلام وتاريخه وعقائده .

وهناك اتجاه العنصرية فى كتابة التاريخ الاسلامى وهو أيضًا من عمل الاستشراق وهى المحاولة التى ترمى الى تصور نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة .

وقد حاول فان فلوتون دولهاورند تصوير القرن الاول الهجرى وكأنه صراع دموي بين العرب كсадة وحكامه وبين سكان البلاد المفتوحة .

وقد تأثر بهذا الاتجاه مؤرخون عرب كثيرون فحاولوا أن يصوروا انتفاضات بعض الوفد كالبابكية والقرامطة على أنها حركات متحررة وتلك نظرة مستمدة من الفكر السياسى الحديث ولم تكن من طابع ذلك العصر .

كذلك فان هناك محاولات ترمى الى الانتفاض من جوهر

الاسلام نفسه على أساس القول بأن تاريخ الاسلام هو تطبيق لهذه الاصول الاسلامية ، والواقع انه لا بد من التفرقة الواسعة بين مبادىء الاسلام الربانية الثابتة الممثلة في القرآن الكريم والستة النبوية الصحيحة وبين التجربة التي قام بها الحكم الاسلامي والتي تلتقي مع مبادىء الاسلام وقد نفترق في بعض المراحل . ولا ريب ان هناك نفر ممن تولوا زمام الحكم في الدولة الاسلامية بعد الخلافة الراشدة بعدوا عن « منهاج الإسلام » فمن غير الحق ان يصور سلوك هؤلاء الحكام بأنه من مبادئ الشريعة . وأهم ما في ذلك الفهم الخاطئ من محاذير هو محاولة نسبة الاستبداد الى الإسلام ومحاولات الاستشراق تبرير الاستبداد بالاسلام نفسه حيث يقول بعضهم وهو كاذب : ان نظام الحكم في الاسلام نظام استبدادي ونسى هؤلاء أن للإسلام مبادئه الواضحة التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم نفسه .

وقد وقع في هذا الخطأ توماس أرنولد في كتابه الخلافة ومرجليوت ، وماكدونالد وموير ، وكلهم حاول أن يتخذ من واقع التاريخ الاسلامي ومن أخطاء بعض الولاة المسلمينمبررا لان ينسب استعداده الى الاسلام .

والانصاف يتضمن أن يقال : ان للقرآن تعاليمه الواضحة التي توجب تساوى الناس في جميع الحقوق ، فإذا ما قامت رئاسة تتفق مع هذه التعاليم التي جاء بها القرآن فهى التي تنطبق عليها الصفة الاسلامية ولا يستطيع أى طاعن أن يطعنها حينئذ فى سموها وكفالتها لجميع الناس فإذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فإنه لا يصح القول بأن هذه الخلافة خلافة اسلامية ، لانه اذا كانت

قد صادقت تعاليم كتاب الله الذي هو دستور الدعوة الاسلامية فهل يصح أن ينسب الى الاسلام ما هو متصادم مع دستوره (دكتور محمد رافت عثمان) .

والخلافة في سماتها الصحيحة ينظر إليها أيام صفائحها ونقائصها ولا يصح أن يتخذ الباحث أى عصر يروقه فيحكم عليها بالسمات التي يجدها في هذا العصر وهذه المنحرفة ليست خلافة على المسلمين بل رئاسة ليست متزمرة في سياستها لهم بقانون الاسلام .

ان تميز التفسير الاسلامي للتاريخ ، وهو المنهج الوحيد الصالح لتطبيقه على التاريخ الاسلامي يتميز بسمات هامة : تغيير مع مفاهيم الفكر الغربي في الاساس ومن ثم يختلف معه في التفسيرات : الليبرالية أو الماركسية على السواء .

أولاً : الانسان :

فالانسان في الاسلام له ارادة حرة قادرة على العمل وهي موضع مسؤوليته وهو بذلك ليس خلية في جسم المجتمع ، وليس محكوم عليه بالحتمية او الجبرية .

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربي الذي يرى فناء الفرد في المجموع ، وان وجود الفرد كشيء منفصل قائم بذاته خداع ، ويرى الفكر الغربي أن الجنس البشري عبارة عن حشد من مخلوقات اليه لا ارادة لها . وأن الحياة البشرية ظاهرة محدودة يحيط بها الزمن احاطة تامة . ولذا فان وجود الفرد غير ذي أهمية قط .

والاسلام يعتبر الانسان في موضع الخلافة في الارض .

ثانياً : ترتبط في الاسلام الأزلي بالأيدي ، والثابت بالمتغير ، والروحي بالماضي ، والدنيوي بالآخر وفى فنطورة الانسان الى الحياة وعمله فيها تمتد الى ما بعد الموت والىبعث والجزاء والى حياة أخرى هي الخلود بعينه .

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربى الذى يرى أن الحياة لها نهاية ليس بعدها شيء وان النظرة فاقرة عند هذا الكون المحدود والزمن المحدود .

ثالثاً : يؤمن المسلم بأن العالم يتحرك بارادة الله المطلقة الفعلة ، التي خلقت نواميس الكون والوجود والمجتمعات وقوانينها وان هذه الارادة الربانية قادرة على تغيير هذه النواميس وايقافها وان الانسان ارادة محدودة داخل ارادة الله ومنها وهى موضع مسئوليته ، ومنها يجيء أثره في تحريك المجتمع وتغيير التاريخ .

فالحق تبارك وتعالى قادر على التغيير بغير سبب واضح من الاسباب التي يعرفها الانسان او يقيسها من تلك القوانين واحاداث التاريخ شاهدة على ذلك في عديد من التغيرات الكبرى التي حدثت ولم يستطع الماديون تفسيرها الا بأن أطلقوا عليها اسم الصدفة أو الفجاءة .

رابعاً : ينطلق التفسير الاسلامى للتاريخ من الله هو الفاعل الحقيقى لكل احداث التاريخ عن طريق خلقه وجنوده (وما يعلم جنود ربک الا هو) والانسان واحد من هؤلاء الجنود وقد قدم

القرآن أسباب قيام الامم وتطورها وانهيارها ، وكشف عن المصدر الحقيقي للنصر والهزيمة والبقاء والزوال .

والقرآن يرد هذه العوامل أساسا الى الاخلاق والايمان بالله والتقوى ، فاذا حافظت الحضارة على هذه العوامل استطاعت ان تستمر وان خالفت سقطت .

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نتمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ .

ومعنى هذا أن الامم اذا انحرفت الى الترف والفساد والانحلال وعزفت عن العمل الجاد القائم على الاخلاق والرحمة والتقوى ، سقطت .

هذا هو القانون الثابت الذي لا يتغير والذي يصيب الامم اذا خرجت عن جادة الحق وانحرفت عن الطريق الصحيح ، طريق بناء المجتمع الرباني ، وقد أصاب هذا القانون المسلمين أنفسهم عندما انحرفو عنه فإذا عادوا اليه عاد اليهم مجدهم ، ولقد كان المسلمون دوما اذا ما خرجوا عن جادة الحق والخلق أصابت سنة الله التي لا تخلف فإذا عادوا الى الاستمساك بالحق والمنابع واعتصموا بالله وكتابه أعيدوا الى القوة والنماء والتمكين في الارض ، ويدعوا القرآن المسلمين الى أن يسيرا في الارض فينظروا عاقبة الامم التي سبقت ، والتي يمشون في مساكنهم ، كالفراعنة والرومان ، وغيرهم ، ليكون لهم عبرة من ذلك .

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيراوا في الأرض » .

« أفلم يسيراوا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » .

ولعل هذا هو القانون الحتمي الذي لا سبيل الى تجاوره ،
اذا فسدت الامم انهارت مجتمعاتها وحضارتها ، واذا عادت الى
الحق أعيدت الى مكانتها ورسالتها وللمسلمين رسالة وامانة عالمية
عليهم ان يبلغوها للبشرية كلها ولذلك فهو احق ان يتمسوا اسباب
الحياة والقوة من مصدرها الاصيل القرآن .

الباب الثاني

البطولة في تاريخ الاسلام

في تاريخ الاسلام تتكشف البطولة في ثلاثة أبعاد :

* بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزوة .

* بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم .

* بطولة بناء الدول في مجال الحضارة .

وهي بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الاسلام كله للذى يجرى في هذه الأبعاد الثلاثة ، الواقع أن الاسلام قد رسم أيديولوجية جديدة لها طابعها الخاص ، تتسم بالإيمان بالله وقوامها الجهاد في سبيل كلمته واقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الانشاء والحضارة . ومن خلال هذا المفهوم تمثل النظرة الى الحياة والمال والموت والجزاء .

ومن هنا برزت « البطولة » التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الاسلام في الدعوة اليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه ورد عادية خصوصه عن قيمه وعن أرضه .. ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » لا يتوقف على الحرب

ووحدتها وإنما يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الانساني كله ما دام هدف الحياة الانسانية الأساسي هو تحقيق رسالة الاسلام ودعوته .

هذا هو التغيير الخطير الذى أدخله على مفاهيم الأمة التى بزغ فيها ضوءه وهى أمة مهيبة بالفطرة لتقبل رسالة عظمى كهذه الرسالة ولما كانت حركات التاريخ كلها تمثل فى أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة اعدادا نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة ، فانه من خلال هذه الجماعة تبرز بطولات الأفراد التى تخطو بالعمل خطواته المنوالية .

كذلك فان الأمة العربية بطبيعة تكوينها وبيئتها ووراثياتها ، وهى تعيش فى هذه الجزيرة الضيقه المنعزلة عن حضارة الرومان وحضارة الفرس والتى بعده عن عبور الغزاوة وحركات الغزو ومعارك القتال وتىارات الحضارة والفكر والمذاهب والأديان ، انما كانت معدة بذلك اعدادا خاصا لتلقى رسالة ضخمة انسانية عالمية تحمل لواءها بكل هذه العوامل المكونة لنفسية جماعتها وأفرادها ، وقد التقى مفهوم الاسلام بطبعات العرب . فتحقق بذلك تحول خطير فى قيم العرب وفق مقاصد الاسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير فى دقة ويسر . واستطاعت أعوام لا تزيد على نيف وعشرين عاما هى حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثته الى وفاته ، أن تحقق هذا التحول .. فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم والمقاتلة والصبر والصمود والبذل . وتلك كلها صفات يرتضيها الاسلام .. غير أنها قبل الاسلام كانت موجهة فى سبيل الغاية الفردية . والاستطالة والثار . والاستعلاء والظلم .

فكان أن حولها الاسلام الى مفهوم انسانى رفيع ، وجعلها فى سبيل تحقيق هدف ومن أجل غايات عليا قوامها الانسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية ، وأحاطتها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها وبالتالي عدل اتجاه النفس الانسانية العربية وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حد لها فى سبيل اذاعة كلمة الله فى الآفاق وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها . دون أن تكون قوة عدوان أو تسلط أو ظلم . وانما تكون وفق مفهوم القرآن ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ..﴾ .

والمسلمون يقاتلون فى سبيل غاية عليا هي تحقيق كلمة الله ونشر الاسلام والدفاع عنه . وهم لا يطمعون فى مغنم مادى بالدرجة الأولى . وهم فى أعمق أعماقهم قد خرجوa على مضمون واضح فى نفوسهم .. هو النصر أو الشهادة .. وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أحرز أكثر نصر .. فهو قد قدم روحه فى سبيل فكرة ملأت نفسه وفاضت بها روحه . ومن هنا فهو يقاتل دون أن يخشى الموت أو القتل لأنه وطد نفسه على أن يموت . فلا بد أن ينصر الكلمة التى آمن بها أولا . ومن هنا فان النتيجة أن يتتصر ولا يموت ، تحقيقا لقانون صادق : « اطلب الموت توهب لك الحياة » . وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين أحد ، فقد قتل الكثيرون ولكنهم ماتوا شهداء .. مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله فى سبيل مبدأ آمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم .

وقد عاش هذا المعنى فى نفوس المسلمين طويلا وما زال حيا نابضا بالحياة ، فهم يتمثلون فى كل خطوة ، ذلك المعلم الأول والقائد الأول .. ما تزال صورته الواضحة الدقيقة المتمثلة

في كتب السنة ، وفي مختلف تصرفاته ، تواجههم وتملاً قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي . فقد كان صلى الله عليه وسلم هو التطبيق العملي لفكرة الإسلام وممقاصده وأهدافه .

فكان تجسيداً كاملاً لتعاليم الإسلام ، والأسوة الحسنة لل المسلمين ، كان خلقه القرآن .. وقد وصفه الحق بقوله : ﴿ وَإِنَكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد تمثلت البطولة بعد مرحلة النبوة في مواجهة الردة التي أصبحت الجزيرة العربية عليها ذات يوم بعد اختيار النبي للرفيق الأعلى ، وفيما عدا ثقيف وقريش فقد ارتد سائر العرب .. وكان موقف الصديق ، دائمًا قويًا فقد أصر أبو بكر الخليفة الأول على المقاومة ورفض الاستسلام .. وأنفذ أحد عشر جيشاً في يوم واحد .. واستطاع أن يستأصل الردة في معارك متعددة أكبرها معركة اليمامة ..

وسرعان ما أبرزت هذه المعركة الأساسية في ميزان بقاء الإسلام بطولات . في مقدمتها بطولة البراء بن مالك . فقد زحف المسلمون حتى الجئوا المرتدين إلى حديقة أطلق عليها من بعد « حديقة الموت » وفيها مسليمة مدعى النبوة . فقال البراء : يا معشر المسلمين القولى عليهم في الحديقة . فقيل للبراء : لا تفعل .. قال : والله لتطرحنى عليهم فيها .. فحمل إلى أن أشرف على الحديقة حتى فتحها للمسلمين .

وفي مواقف متعددة وغزوات مختلفة توالت على ثرى الشام وفارس والعراق ومصر بربعت معاالم البطولة الإسلامية حية نابضة

بالحياة . وقد غيرت مقومات الاسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرتها لدى الرجل . فقد جاهدت المرأة في الحرب وقاتلت .. فقدمت حلتها وشعرها .. وفي معركة اليرموك قاتلت النساء في جولة فخررت جويرية بنت أبي سفيان ومعها زوجها فقاتلته قتالا شديدا .

وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة في صورة من أدق صورها . مستمدّة قوتها من مفهوم الاسلام نفسه . وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت في العام ١١٤ هـ بصورة عامة ، فإنها ظلت حية تمثل في حركة المقاومة التي لم تتوقف في جبهات الحدود الاسلامية البيزنطية والحدود الاندلسية الاوروبية والاسبانية وفي حدود عالم الاسلام والشرق .

فقد امتدت معارك المقاومة متقطعة على مراحل وفترات ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير من جانب العدو هي : الادلة من علم الاسلام أو الحيلولة بينه وبين التوسع ... ثم برزت ثلاث معارك ضخمة .. هي الحروب الصليبية في المشرق وحروب الفرنجة في الاندلس والمغرب والغزو الصليبي التترى . وفي خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الاسلام في المقاومة بصمودها وسماحتها في الوقت نفسه . وبرزت نماذج جديدة من البطولة العربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي مع صور خالد ابن الوليد وسعد بن أبي وقاص .. وتلمس المسلمون على المدى الطويل أخلاق الاسلام ومفاهيمه ، يحاولون أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول حماية للذمار ومقاومة للعدو وعدلا وسماحة .

* * *

بطولة العلم التجريبى

لا مشاحة أن العلم كان ولا يزال من أخصب جوانب الفكر الاسلامي ودعاة أساسية في بناء الحضارة الاسلامية فقد حرض القرآن على اصطناع العقل ، ودعا الى النظر في الكون والبحث في أعماق الأرض ففتح الباب واسعاً للمسلمين منذ اللحظة الأولى لنزوله الى النظرة العلمية العقلية القائمة على التكامل بين العقل والقلب والوسطية بين الروح والمادة وقد كانت أزهر فترات التاريخ الاسلامي هي المرحلة التي توازن فيها الفكر الاسلامي : جاماً بين الدين والدنيا وبين ثقافة القلب وثقافة العقل ..

وفي مجال العلم بربز أبطال من الباحثين الدارسين لم يتوقف أمرهم عند علوم الشريعة والعقيدة والأخلاق وإنما امتد الى مجال العلوم الطبيعية والرياضية فبلغوا في مختلف مجالاتها قدرًا عاليًا ، وقد كانت قاعدتهم الأساسية : العلم هو علم الدنيا والآخرة معاً وهو العلم الجامع بين بناء الحضارة وبناء النفس الإنسانية جميـعاً .

هذه النظرة كانت قيمة أساسية في مجال البحث العلمي الاسلامي .. أما انحراف هذه النظرة في مرحلة الضعف حين غلت (الجبرية) وحين انصرف المسلمون عن العلوم الطبيعية والرياضية فذلك انحراف لا ينسب إلى الاسلام وإنما ينسب إلى المسلمين .

وقد بدأ المسلمون ممارسة العلم والبحث في مختلف المجالات قبل أن يصلوا بالفلسفات اليونانية وغيرها فلما بدأت ترجمة الآثار اليونانية أخذوا تلك المبادئ القليلة التي كانت عند

اليونان فنظروا فيها وعرضوها على مفهوم التوحيد الخالص فرفضوا منها وقبلوا ثم نموا ما قبلوه وأضافوا اليه ثم ابدعوا علوماً أخرى لم يسبقهم إليها أحد .

ولا شك أن اتجاه الفكر الاسلامى الى الانفتاح على الثقافات البشرية : فارسية ويونانية وهندية ، كان ايمانا بـ إنسانية الفكر الاسلامى ومرؤنته وحيويته وقدرته على استيعاب الثقافات البشرية وصهرها فى بوطقته ورفض ما لا يتفق مع مفاهيم الاسلام ومقوماته . واذا كان ائمة المسلمين يهدون الهدايا الى حكام بيزنطة اغراء لهم بإرسال الكتب القديمة ، بل و كانوا يجعلون هذه الكتب من الجزية المفروضة على الروم فان دلالة هذا التصرف واضحة فى فهم المسلمين للاسلام وجرأتهم فى مجال العلم والعقل والبحث .

وقد نما الفكر الاسلامى من خلال العقائد والفقه وكان تحقيق الحديث النبوى علامة ضخمة على قيام المنهج العلمى المؤتى لقبول النصوص أو رفضها ، هذا المنهج الذى نما بعد ذلك فى مجال الفقه والتاريخ ، ثم كانت التفريعات والتشقيقات التى قام بها المفكرون المسلمون ازاء القضايا والأحداث والمواضف المتعددة لا يجاد حلول منوعة لكل حالة من حالات المجتمع وعلاقات الناس فى مختلف البيئات والعصور .

كانت هذه الممارسة مقدمة للعمل فى مجال الفلك والكيمياء والرياضيات والطب الذى حقق مولد حدث ضخم هو (المنهج التجريبى الاسلامى) الذى رسم المفكرون المسلمون والعرب

منهاجه ووضعوا قواعده وأقاموا عليه أعمالا ضخمة وحققوا به تقدما بارعا .

هذا المنهج التجريبى الاسلامى هو آخر ما أهدت الحضارة الاسلامية لأوروبا فى القرن العاشر الهجرى والقرن السادس عشر الميلادى عن طريق الأندلس بعد أن سجل أعلام العلم التجريبى خطوات واسعة تشهد بدور المسلمين فى اقامة هذا المنهج وممارسته ، وفي مقدمة هؤلاء الرازى وابن سينا والخوارزمى والبتانى والبيرونى وعمر الخيام ، وابن زهر وابن خاتمة وابن الهيثم وابن العوام وابن البيطار وابن رشد وابن الخطيب .

وقد سجل العلامة سارطون حقيقة الدور الذى قام به المسلمون فى مجال العلم التجريبى حين قال أن أعظم الابتكارات العربية فى الرياضيات والفلك كانت شيئا : علم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد ، وعندئذ أن العرب جمعوا بين المصادرين (اليونانى والهندى) وانهم نقوحوا الآراء اليونانية بالأراء الهندية . وقال : اذا لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكارا فليس فى العلم ابتكار على الاطلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المترفرقة فى نسيج واحد .

والحق أن المسلمين لم ينقلوا المفهوم الرياضى الاغريقي بل وضعوا مفهوما جديدا - كما فعلوا فى الفلسفة والأخلاق والتصوف والأدب ، وكل الفنون التى كان لها وجود سابق على الاسلام . وكان مفهومهم قائما على الرابط الوثيق بين مكتشفات العلم وبين مبادئ الاسلام .

وهكذا كان موقف المسلمين من العلم موقفاً له طابعه الاستقلالي الابداعي ، واذا كانوا قد أخذوا من تراث الأقدمين فانهم لم يستسلموا له أو يتوهوا فيه ولم يدعوه يصوغهم بل هم الذين صاغوه وفق اطار واضح من قيمهم ومفاهيمهم ، ذلك أن القرآن قد دعاهم الى العلم وحثهم الاسلام على النظر في الكون والبحث في الأرض فلما سلموا زمام العلم لم يخضعهم ، وإنما أخضعوه وحرروه من زيف الوثنيات والغموض وحاولوا دون أن يكون وسيلة للعدوان أو اباحتة . فقد أعادوا صياغته في ضوء مفهوم الاسلام خلقاً جديداً مختلفاً كل الاختلاف ثم أقاموا عليه بناء ضخماً وأضافوا إليه اضافات كبيرة .

وقد كانت أدلة العمل في مجال العلم عند المسلمين هي :

(النظر العقلى + التجربة + الرحلة) وقد بلغ المسلمون في ذلك غاية الغايات فحققوا النصوص القديمة ورفضوا ما لا يقبله العقل والتمسوا التجربة في المعامل فقاموا بها على الحيوانات والحيشات ثم ذهبوا إلى أطراف الأرض يبحثون عن الحقائق وقد رحلوا بخارى ستة عشر عاماً ورحل الغزالى عشر سنوات ورحل ابن بطوطة ربع قرن كامل .

كما حفلت عواصم الحضارة الاسلامية بمعاهد العلم ومعامله ومراصد الفلك والمكتبات ، وكان في بغداد وحدها في عصر المقتدر بالله الخليفة العباسى ما قارب التسعمائة طبيب ومن جازوا الامتحان ليكونوا أطباء وقد نظمت صناعة الطب فكان للأطباء رؤساء وكان عليهم رقباء لاتصال أعمالهم بمصالح الناس كافة ، ومن الأطباء من كان خاصاً بالجند فهو يصحبهم في أسفارهم ولهم

رواتب ومنهم من يطبوون العامة وهم غير المرتزقين ومنهم متخصصون ومنهم الطبيب على اجماليه ومنهم الجراح والفاقد ومنهم الكحال أي طبيب العيون والأسنان ومنهم من يقتصر عمله على معالجة النساء ومنهم من يطب للمجانين . وكانت جامعة بغداد تعتمد سنوياً مليوناً ونصف مليون فرنك لشراء الكتب والمخطوطات .

ولم يقف شأن العلماء التجربيين المسلمين عند مجال الطب بل تعداه الى مختلف مجالات الفلك والجغرافية والكيمياء والفيزياء ، والنبات والزراعة والرياضية والتاريخ والرحلة والكشف .

وقد سبق الباحثون المسلمين علماء أوروبا في (تعييد) القواعد فابن حزم وضع أساس نظرية المعرفة التي قام بها (كانط) بعده بثمانية قرون .

وابن خلدون بسط فلسفة الاجتماع قبل متسكيو وتادر بخمسة قرون . وبراهين الغزالى للدفاع عن الايمان سبقت نظرات القديس توماس الاكويينى بعشرة قرون .

وكان أبرز عوامل التقدم العلمى الاسلامى سماحة المسلمين فى تلقى علوم السابقين لهم وان خالفت أصول فكرهم كما كان العلماء المسلمون سمحاء مع اليهود والنصارى ، ذلك التسامح الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى ، وكانوا آية التسامح فى عرض علوم الملل والنحل ، وقد قدموا كل نتاج أبحاثهم العلمية فى الأندلس الى أوروبا بسماحة ، وكان العلماء المسلمون مطبوعين على الخلق والصدق وشمول النظرة بين العلوم العقلية

والشرعية والرياضية . والحق أن الاسلام لم يعط الغرب أساس البحث العلمي التجربى فحسب ولكنه أعطاه مفهوم الحرية والاندفاع نحو العمل والبناء والإنشاء والابتكار ، وهو ما قدمه ابن رشد للفلسفة الأوروبية من مفاهيم زلزلت القيم الجامدة القديمة ، حيث تغيرت نظرة انكار الدنيا والتشاؤم التى كانت غالبة على الفكر الأوروبي وحلت محلها نظرة إيجابية مصدرها الاسلام ، فالاسلام وهو دعوة البحث عن الحق قد حرض الناس على السعي اليه عن طريق المعرفة والدفاع عنه وقدم فى هذا المجال قانونين أساسيين :

(الأول) .. هو الشك قبل الايمان وقدم لذلك قصة ابراهيم الذى تطلع الى القمر ثم الشمس وغيرهما ثم دخل بعد الشك فى الايمان .

(الثاني) .. جعل للمجتهد أجرًا اذا أخطأ ، وأجرين اذا أصاب ..

وقد أكد العلامة بريفولت دور المسلمين فى ابداع المذهب العلمي التجربى فقال :

لا يستطيع (روجر بيكون) ولا سميء الذى جاء من بعده أن يدعيا أنهم ابتكراء الطريقة التجريبية ، تلك الطريقة التى هي من صنع العرب وحدهم ولم يسبقهم اليها باحث أو مفكر وكل ما عمله (بيكون) أنه كان تلميذا مخلصا لل المسلمين تلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها الى أوروبا .

وقد أرسى العلماء المسلمين قاعدة بحثهم على هذه الأسس :

- ١ - تكريم العقل .
- ٢ - احترام الشخصية الانسانية .
- ٣ - العدل والمساواة .
- ٤ - الایمان بالعلم والحقيقة .
- ٥ - الاعتماد على التجربة .
- ٦ - الاعتقاد ببقاء الروح بعد البدن .
- ٧ - الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة .
- ٨ - القول بإله واحد قديم خلق العالم من لا شيء .

* * *

بطولة العلم والعلماء

للعلم والعلماء صفحة بطلة في تاريخ الاسلام ، ورائعة باهرة ، ففي كل مجال من مجالات العلم نجد أسماءهم اللامعة واضافاتهم البناءة .

ففي التاريخ : الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن خلدون .

وفي الأدب : الجاحظ وابن قتيبة والخليل بن أحمد .

وفي الفلسفة : الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد .

وفي التصوف : ابن عربى وابن الفارض والشعرانى وعبد القادر الجيلانى .

وفي الكلام : واصل بن عطاء والنظام والأشعري والماتريدى والباقلانى والجوينى .

وفي الحديث النبوى : ابن شهاب الزهرى ، وابن جريح المالكى وابن أصحق والترمذى .

وفي الفقه : مالك وابو حنيفة والشافعى وابن حنبل وأبو يوسف .

وفي العلم : الخوارزمى والبیرونی والبتانى وجابر بن حيان والرازى وابن الهیشم وثابت بن قرة .

وفي تصحیح المفاهیم : ابن حزم والغزالی وابن تیمیة .

وابن سینا اعظم الأطباء والبیرونی اعظم الجغرافیین وابن الهیشم اعظم علماء البصریات وجابر بن حيان اعظم الكیمائین وابن رشد فقیه وفیلسوف .

يقول ول دیورانت : ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الاسلامى الا جزءا صغیرا مما بقى من تراث المسلمين وليس هذا الجزء الباقي الا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائتهم وليس ما أثثناه الا نقطة من تراثهم .

كان لهؤلاء العلماء رحلاتهم الطويلة من أجل البحث عن النص وتحقيق السند ، ذهب البخارى في رحلته الطويلة بضعة وعشرين عاما في تحقيق الحديث ، وجد سبعين ألفا وأقر منها

أربعة آلاف فقط . وعرض لذلك كله في ذوق رفيع وأدب وخلق
film يهاجم أحدا ، ولما عاد رفض أن يحدث الناس إلا في بيته أو
في المسجد .

وكانوا جميراً يوجهون العلم لله خالصاً ولخدمة الأمة ، ولا
يتطلعون إلى مال أو جائزة سنوية ، كان ابن الهيثم صاحب نظرية
الضوء التي قام عليها علم أوروبا كله يعتمد في كسب قوته على
نسخ الكتب وكان يقول : يكفيني قوت يوم ، وقال كلمته المشهورة
عندما وصلته هدية أحد النساء : اعلم أنه لا أجر ولا رشوة ولا
هدية في إقامة الخير ونشر العلم . أما البيرونى فقد رد ثلاثة جمال
تنوء بأحمالها من النقود وقال : « إنما نخدم العلم للعلم » .

وفي مجال العلم عرفاً : « البرهان والحق » فقد دافع ابن
حزم عن كروية الأرض بالعقل والدين وسبق « كانت » في نظرية
المعرفة بسبعين قرون وقال : إن التقليد حرام ، ولا معجزة لنبي بعد
وفاته . وكان مذهبه « لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير
برهان » .

والفارابي فكر في أمم متحدة منذ قرون ، ومدينته الفاضلة
تضاءلت إلى جانبها جمهورية أفلاطون ، فقد أقامها على العدل
المطلق بين أبناء المدينة أما أفلاطون فقد رفع الأمراء وجعل عامة
الشعب عبيدا . والأمة عند الفارابي جسم واحد لا يستقيم أمره إلا
بالتضامن والتعاون .

وقد ظهرت آراء الفارابي فيما بعد في نظرية العقد
الاجتماعي لجان جاك روسو ، ومن آراء الفارابي : أن السعادة

ممكنته على وجه الأرض اذا تعاون المجتمع على نيلها بالأعمال الفاضلة ، ويرى أن النجاح في الأعمال هو تمام ارتباط العلم بالعمل وان بلوغ الغاية يكون بإصلاح الانسان نفسه ثم اصلاح غيره . والعلماء العرب هم الذين أطلقوا الأسماء على النجوم ، هذه الأسماء التي ما تزال حتى اليوم تطلق عليها في عصر غزو الكواكب ، فالشاعر اليماني والعيون والسمك والرامح والنسر وقلب العقرب ، ما زالت تترجم إلى اللغات الأوروبية بأسمائها العربية . وقد كشف علماء المسلمين عن المجموعات الفلكية : مجموعة العقرب والبروج الاثنا عشر والدب الأكبر والنجم القطبي والفرقدان والحاوى .

«وابن رشد» دعا إلى مشاركة المرأة الرجل في خدمة المجتمع والدولة ، وعنه أن النظر البرهانى لا يؤدى إلى مخالفة ما ورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له . أما «الغزالى» فقد سبق «كانت و هيوم» وغيرهما من الفلاسفة العقليين فى مسألة قدم العالم والزمان والمكان بمئات السنين واهتدى فى ذلك الى آراء سبق بها فلاسفة القرن الثامن عشر .

و «الطوسي أبو جعفر» : له فضل اقامة مرصد مرااغة العظيم ، وله مؤلفات رائعة في علم التحول وانعكاسات الشعاعات قال سارذون : ان أقوال «الطوسي» مهدت للأعمال التي قام بها «كوبيرنيكس» فيما بعد وبحوثه عن الكرة السماوية ونظام الكواكب . وكتابه «شكل القطاع» انه كتاب يفصل المثلثات و يجعلها علما مستقلا .

اما «الشاطبى» فقد توصل الى نظرية شبيهة بما يسمى في

القوانين العصرية بـ « نظرية التعسف في استعمال الحقوق » فأثبتت بعد تحليل وتفصيل دققين أنه يجب منع الفعل المأذون فيه شرعا اذا قصد منه فاعله الاضرار بالغير . وقال « ابن حزم » زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وانها ترى وتسمع ، وهذه دعوى باطلة وبلا برهان وصحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا وأن حركتها أبدا على رتبة واحدة ولا تتبدل عنها ، وهذه صفة الجماد الذي لا اختيار له ، وليس للنجوم تأثير في أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به ، الا اذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الماء والهواء ونحو أثرها في المد والجزر ، وقال ان النجوم لا تدل على الحوادث المقبلة .

اما ابراهيم النظام فدعا الى الشك في سبيل اليقين وقال : ان الشك سبيل الانسان الى كل يقين وان طالب العلم لا يكون كحاطب ليل ، بل ينبغي أن يتخير مما فيها ولا يسمح أن يدخل في نفسه الا الجد المتنقى وعنه ان الكتب لا تحيي الموتى ولا تحول الأحمق عاقلا ولا البليد ذكيا ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتف وترهف وتشفى .

ويقول : الشاك أقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حالة شك .

والمعروف أن النظام وواصل بن عطاء وغيرهما كان لهما دور ضخم في الدفاع عن الاسلام في وجه مناهج الفلسفة اليونانية التي حمل لواءها خصوم الاسلام وقد استطاع بعمق منطقه وسلامة جداله تصحيح الحقائق والعقائد في نفوس المئات .

وقد عرف علماء المسلمين « التقنين » ممثلا في اللغة القانونية المحكمة التي كتبت بها مصنفاتهم الفقهية وفي التبويب الدقيق للمسائل مما نجده في أوضح صورة في المختصرات المكرسة للفقه العملي مثل كتاب الماوردي وكتاب أبي يعلى المعاصر له والحاصل نفس العنوان . وقد نسقت أحكام هذه المختصرات على صورة تجعل من الميسور تصنيفها إلى مواد قانونية على الشكل المتبوع في التقنين الحديث وكان ابن حجر العسقلاني واحدا من أعمدة المنهج العلمي ، يقول « البقاعي » عنه : لا يستطيع أحد أن يقسره في شيء أصلاً ، أو أن يقرب من ذلك فهو لا يقبل كلام أحد في غيبة خصمه فهو آية في حسن القضاء ومعرفة دسائس الناس في كلامهم والاهتداء إلى قطع الأمور . له في المناظرة مسلك غريب قل أن يثبت له في ذلك أحد . ويركز « الترمذى » منهجه الفكرى على الحق والعدل والصدق . يقول : أنا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول ، فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور وإذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب . وهذه الثلاثة جند المعرفة وهذه الثلاثة التي هن أصدادهن جند الهوى .

والطرطوشى فى كتاب (سراج الملوك) يسبق فلاسفة السياسة وفن الحكم فى أوروبا وهو واحد من عدد من علماء الإسلام الذين عملوا فى هذا المجال : كالغزالى فى التبر المسبووك والشيرازى فى المنهج المسلوك فى سياسة الملوك وابن طباطبا فى (الفخرى) وأبرز مفاهيم الطرطوشى أنه لا يفرق بين السياسة

والأخلاق بل يراهما شيئاً واحداً متفقاً ، وهذا المنهج الإسلامي يخالف منهج « ميكافيللي » في كتابه الأمير .

أما « الكندي » الفيلسوف فقد درس الصلة بين الموسيقى وتحريك النفس وما يناسب أحوالها وما يبعث السرور ، ودرس علاقة ذلك بالطب وأمكنته التوصل إلى امكان معالجة المرضى بالموسيقى ، وذلك بضرب الأنغام المناسبة للمربيض .

وعرف المقدسى بأنه أعظم جغرافي عرفه البشرية قاطبة على حد تعبير المستشرق « أشيرنجر » فقد طاف العالم كله ما عدا الأندلس والسندي وركب المخاطر في بحر الهند والبحر الأحمر والبحر الأبيض يقول : ما بقيت خزانة ملك الا وقد لزمنتها ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ولا أهل زهد الا وقد حالفتهم ولم يبق شيء مما يلحق المسافرين الا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية « التسول » وركوب الكبيرة ، وقد تفهنت وتزهدت وتبعدت وفهنت وأدبتك خطبت على المنابر ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخاقانيين الشرائدين ، ومع النواتي « الملائين » العصائد ، وطردت في الليالي من المساجد ، وساحت في البراري وتهت في الصحاري .

أما « الطبرى » فقد صور منهجه في كتابة التاريخ في مقدمة كتابه « تاريخ الرسل والملوك » فقال : ليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره منه مما شرطت أنى راسمه فيه ، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مستندها إلى رواتها دون ما أدرك بحجج العقول واستيقظ بفكر النفوس . وابن كثير « الذى تصدى للمروريات الاسرائيلية وفصل

القول فيها وهو يرى أن القرآن قصد إلى الاجمال فيجب الوقوف عند ما قصد إليه والزمخسرى في (الكتشاف) يحرر فكره من الخضوع للأهواء ويعارض العلماء ذوى الأهواء الذين جمعوا عزائم الشرع دونوها ثم رخصوا فيها للأمراء وهنونها وقال : «انما حفظوا وعقلوا وصفقوا وحلقوا ليجمعوا المال ويسيروا ». والخليل بن أحمد واضح قواعد العروض ومناهجه ، وأبو الأسود الدؤلي واضح منهاج الفصحي وقواعد النحو والجاحظ واضح منهاج النقد الأدبي ، والشافعى واضح منهاج الاستنباط وأصول الفقه .

والأشعرى صاحب الحملة على الانحراف إلى الفكر اليونانى وأبن تيمية صاحب الحملة إلى الطرقيات المنحرفة والغزالى صاحب الحملة على مغالاة الفقهاء .

وابن دقيق العيد الذى قال : «النص» هو الامام . والرأى هو المأمور والمذاهب ترد إليه . ويقول لا يصح أن يجعل الرأى الذى فيها للنص أصلاً فيرد النص إليه بالتكليف والتحليل .

الباب الثالث

الدولة العثمانية

تكشفت في السنوات الأخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيعت أسرار كثيرة ظلت في طي الكتمان أعواماً بل وأجيالاً . وقد كان لظهور هذه الحقائق والاسرار أثراً بعيداً في مجالات مختلفة وأمور كثيرة وكان أبرز هذه الوثائق (بروتوكولات صهيون) وكانت قد أصبحت كالمسلمات مما استدعت إعادة النظر فيها ومراجعةها من جديد . وكان أبرز هذه الأمور ما اعتبر من تاریخ الإسلام الحديث من مواقف ارتبطت بالدولة العثمانية والصهيونية العالمية ومحاولة استيلاء اليهود على فلسطين ، ففي خلال هذه الفترة من حياة الدولة العثمانية كانت المطامع المتضاربة بين الدول الغربية من ناحية والصهيونية العالمية من ناحية أخرى قد عملت على حجب كثير من الحقائق وتزييف جانب آخر منها في محاولة عاتية لتمزيق الوحدة الإسلامية وللادلة من الخلافة الإسلامية ولفتح الطريق للقوى الصهيونية إلى فلسطين واقامة الحواجز الإقليمية العميقية بين أجزاء العالم الإسلامي وخاصة بين أقطار البلاد العربية وذلك حتى تتمكن هذه القوى الجديدة من الوثوب والسيطرة باعتبارها شريكاً للاستعمار الغربي وبديلاً عنه من خلال مطعم

عقائدي يرتبط بأرض الميعاد وبتاريخ قديم لليهود متصل بها ومن خلال هذه المحاولات الواسعة زيف تاريخ الاسلام الحديث ووضعت خطط وكلمات ومصطلحات أصبحت بمثابة المسلمات التي رددتها كتب المدارس وأبحاث الجامعات ومقالات الصحف على أنها التصور الحقيقى للامور وكلها تقول : بالسلطان الاحمر والاستعمار التركى والاستبداد العثمانى والصراع بين العرب والترك والقومية الطورانية . ومن هنا نشأ تصور ما زال مطروحا فى أغلب كتب التاريخ والادب العربى وخاصة فى المناهج المدرسية والجامعية قوامه :

- ١ - ان السلطان عبد الحميد كان رجلا مستبدا ظالما ، وانه كان يلقى خصومه بالعشرات فى الدردنيل وكانت له قوى ضخمة تشتعل بالجاسوسية وتصادر الحريات .
- ٢ - ان الدولة العثمانية كانت دولة مستعمرة سيطرت على البلاد العربية بالقوة وجنت اليها ثمراتها وتركت تلك البلاد فقيرة ضعيفة .
- ٣ - ان الاتحاديين فى الدولة العثمانية كانوا قوة قدمية عصرية بينما كانت القوى الاجنبى قوى رجعية متخلفة .
- ٤ - ان دعوة السلطان عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية كان قد تجاوزها الزمن وفاتها أوانها وان الدعوات القومية كانت هي اسلوب العصر .

منذ أن عقد مؤتمر بال في سويسرا عام ١٨٩٧ بزعامة الصحفى اليهودى هرتزل وبعد صدور كتاب الدولة اليهودية بقلمه

كان قد افتتح مجال جديد للعمل في مواجهة العالم الإسلامي لشقت الطريق إلى فلسطين لاقامة وطن قومي لليهود بها من خلال مخطط القوى الاستعمارية التي كانت قد انطلقت منذ ١٧٩٩ إلى مصر تحت اسم الحملة الفرنسية ثم إلى الجزائر ١٨٣٠ ثم إلى مصر مرة أخرى ١٨٨٢ والى تونس قبل ذلك بعام واحد ، وفي هذه المرحلة كان الصراع قويا بين الاستعماريين الفرنسي والإنجليزي في المنطقة التي تضم الدولة العثمانية التي كانت تمثل الوحدة العربية التركية - ولكن تكتمل الصورة فإن هولندا كانت قد سبقت ذلك بوقت طويلا بالاستيلاء على الملايو وجماهير وما يطلق عليه الان اسم اندونيسيا وكانت بريطانيا قد احتلت الهند وكانت أجزاء من الخليج قد سقطت في أيدي إسبانيا والبرتغال ثم ورثتها بريطانيا وكان هذا كله جزء من مخطط الاستعمار الغربي الحديث الذي تكامل في نهاية الحرب العالمية الأولى بارتفاع الصراع بين العرب والترك في المناطق العربية (الحجاج والشام والعراق) وحلول فرنسا وإنجلترا بدلا من الدولة العثمانية في هذه المناطق بعد معركة أدارتها إنجلترا بقيادة لورنس الذي وصف في يوم من الأيام بأنه ملك العرب غير المتوج .

كان المخطط معدا لأن تعطى فلسطين في هذا المسرح الذي مثلت عليه هذه الرواية كلها للصهيونية العالمية . وأن استيلاء بريطانيا على فلسطين عام ١٩٤٨ كان تمهدًا لأن تقع بما فيها بيت المقدس في أيدي اليهود .

ومراجعة الاحداث تنبئ بهذا التخطيط الواسع بعيد المدى الذي بدأ منذ وقت باكر يسبق لقاء هرتزل للسلطان عبد الحميد .

وهو في حقيقته صراع بين ارادتين . الارادة الاولى : هي ارادة السلطان عبد الحميد الذى تولى الملك فى الدولة العثمانية عام ١٨٦٨ والذى قاد حركة كبرى فى سبيل الوحدة فى مواجهة الاستعمار تحت اسم ^(١) الجامعة الاسلامية لتعمل مع جميع مسلمي العالم خارج نطاق الدولة العثمانية وتوحد كل القوى والمذاهب والاقطارات .

ولا ريب كانت هذه الحركة مضادة لارادة أخرى كانت تستهدف تمزيق الدولة العثمانية نفسها وليس لتمكينها من أن تجمع اليها أقطار المسلمين الأخرى التي في خارجها ولذلك كان النضال عميقاً وكان الصراع شديداً فقد تكاثفت القوى الغربية كلها في سبيل السيطرة على البلاد الاسلامية وتقسيم الامبراطورية العثمانية بعد أن عممت إلى أنهاكها سنوات عدة بالحروب والمؤامرات وحين باتت لقمة سائفة جاء السلطان عبد الحميد ليعقد الخناجر على مقاومة الاستعمار ولذلك كان لا بد من إزاحته ، كذلك فان اليهودية العالمية كانت ترى أن الدولة العثمانية هي مدخلها إلى فلسطين وكانت تعد العدة منذ وقت بعيد في بؤرة خطيرة داخل تركيا هي سالونيك التي كانت تتجمع فيها (الدونمة) أولئك الذين دخلوا الإسلام تقية من يهودي إسبانيا الذين هاجروا بعد خروج الحكم الإسلامي منها ، والذين كانوا قد أنشأوا المحافل الماسونية لاعداد خطة الانقضاض على الدولة العثمانية ، والذين استطاعوا احتواء جماعة الاتحاد والترقي والتغلغل فيها والسيطرة عليها ومن ثم استطاعوا بها اقصاء السلطان عبد الحميد واسقاط مشروعه

(١) للمؤلف

والقيام على الدولة لتمزيقها والقضاء عليها ولا عجب ففى ظل حكم الاتحاديين بعد اسقاط عبد الحميد منذ عام ١٩٠٩ الى ١٩١٨ هزمت الدولة في الحرب العالمية وسلمت طرابلس الغرب إلى إيطاليا وفتحت الطريق أمام اليهود إلى فلسطين .

هذه المرحلة الدقيقة الخطيرة من تاريخ الإسلام في العصر الحديث ما زالت تشويبها الشوائب وتحول قوى كثيرة دون الكشف عن حقائقها ، وما زالت الصورة التي رسمتها الصهيونية والاستعمار لها هي الصورة الرسمية القائمة في كتب المدارس والجامعات بالرغم من الحقائق الكثيرة التي تكشفت والتي أزاحت الظلم عن وجه الرجل الكريم السلطان عبد الحميد وعن موقفه .

والحق أنه ليست هناك شخصية في تاريخ الإسلام الحديث هوجمت بمثل ذلك العنف والتعسف الذي هوجم به السلطان عبد الحميد حتى كشفت الوثائق في السنوات الأخيرة ليس عن براءته بل عن بطولته ومن عجب أن أبرز النصوص التي أحقت الحق ، جاءت في مذكرات هرتزل التي نشرت باللغة العربية .

ولنعد إلى حقيقة الصراع بين القوى الإسلامية بقيادة عبد الحميد وبين القوى الاستعمارية واليهودية لنعرف مدى ما حققه اسقاط عبد الحميد تمهدًا لالغاء الخلافة الإسلامية .

لكى نعرف حقيقة حركة الوحدة الإسلامية الجامحة التي قام بها عبد الحميد يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وقد بلغت الدولة العثمانية أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية

على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها وادلالها . وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جمیعاً بالإضافة الى البابوية تشتراك في رسم هذه الخطط وفي انتزاع الاجزاء الأوروبيية من الدولة واسترجاعها والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية في الدولة وهي الشام والعراق والجزيرة العربية .

وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزاً شديداً على الدولة العثمانية من أجل الوصول الى فلسطين وتحقيق حلمها في اقامة هيكل سليمان . فلما ولى السلطان عبد الحميد الحكم خليفة المسلمين وسلطاناً للدولة العثمانية واجه الموقف على نحو يختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه وكانت مواجهته جادة حاسمة . كان احساسه بالتبعية كبيراً وكان ذكاؤه وسعة فكره والمأمه بالتيارات المختلفة بالغاً ، ومن هنا فقد جرى من الاحداث في طريقها المرسوم شوطاً ثم لم يلبث أن وضع خطته المحكمة التي رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة الغزو الاستعماري الزاحف والذي كان قد تشكل داخل الدولة العثمانية في مؤسستين خطيرتين .

احدهما : المحافل الماسونية في سالونيك وتركيا الفتاة التي سميت بعد (الاتحاد والترقي) والتي ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكري الغربي وخاصة الفرنسي ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لكي تصل إلى التحرر والقوة إلا بالتماس مناهج الغرب التماساً كاملاً وطرح فكرها واسلوبها ومنهجها الاسلامي القديم والتخلص منه إلى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها فالتمست العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها

ووجهتها الوجهة التي ارتضتها في القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو : ان الوسيلة الاساسية لمواجهة النفوذ الاستعماري هو تجمع المسلمين في كل مكان تحت جناح الخلافة الاسلامية الذي تحمل لواء الدولة العثمانية الجامحة في كيانها بين العرب والترك ، ومن هنا فقد كان على السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين أن ينادي المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه في صف واحد في مواجهة النفوذ الغربي ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التي هزت الغرب كله : « يا مسلمي العالم اتحدوا » .

ومن هنا بدأ الخطر الذي واجهته الدول الاوربية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية في عنف وأخذت في التماس كل وسائل التآمر والغدر في سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها . ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتا طويلا وانه كان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء في قوة في مواجهة عواصف السياسة الاوربية ثلاثة عاما كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف .

لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوروبا والغرب المتجمع باسم كلمة (لا اله الا الله) وتحت لواء الخلافة قوة عارمة خشيت بأسها أوروبا وحسبت لها ألف حساب ، فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربي في عديد من الاقطارات التي احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات أهمية خطيرة . ولقد

مضى السلطان فى تنفيذ مخططه فى قوة وسرعة ، بحيث شملت الدعوة كل الافق الاسلامية وذاعت فى كل مكان وحملت معها عملا ايجابيا نافعا قوامه المدارس والمنشآت فى كل صقع من البلاد الاسلامية وكان قد أنشأ مدرسة للدعـاة الذين سرعـان ما انبثـوا فى كل أطراف العالم الاسلامي الى الهند والصين وجزائر المحيط ومصر وافريقيا وتركستان وأفغانستان وبـلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية ، كما عقد مع الـامـرـاء فى شـتـى هـذـه الـبـاقـاع مـراسـلات وـعـقـود وـعـمـق رـوابـط الـود وـالـاخـاء الـاسـلامـي فيما بينـهم وبينـ دـولـة الـخـلـافـة حتى قـيل انه لم يـقـ مـسـلـم واحدـ لم يـعـرـ طـرـفا عنـ هـذـه الدـعـوة . وقد جـعـلـ السـلـطـانـ عبدـ الحـمـيدـ أمـامـهـ أمـرـيـنـ هـامـيـنـ :

(الأول) أن يكون أهل بلاد العرب هـم سـاقـةـ هـذـهـ الدـعـوةـ وـحـمـلـةـ لـوـائـهـاـ وـمـنـ هـنـاـ فـقـدـ اـتـخـذـ فيـ كـلـ قـطـرـ عـرـبـيـ «ـمـشـيرـاـ»ـ لـهـ فـجـمـعـ حـوـلـهـ عـلـمـاءـ وـأـمـرـاءـ منـ الـجـزـائـرـ وـالـشـامـ وـمـكـةـ وـمـنـهـمـ أـبـنـاءـ الـأـمـيـرـ عـبـدـ الـقـادـرـ الـجـزـائـرـيـ وـغـيـرـهـ مـنـ أـمـرـاءـ الـمـسـلـمـيـنـ .

(الثاني) هو انهـاءـ الخـلـافـ الذـىـ اـجـجـهـ الـاستـعـمـارـ بـيـنـ السـنـةـ وـالـشـيـعـةـ اوـ بـيـنـ الـاتـراكـ وـالـفـرـسـ وـقـدـ اـسـتـخـدـمـ لـذـلـكـ عـلـمـةـ كـبـيرـاـ هـوـ السـيـدـ جـمـالـ الدـيـنـ الـافـغـانـيـ وـأـجـرـىـ صـلـحـاـ مـعـ شـاهـ فـارـسـ وـصـفـىـ أمرـ الـخـلـافـاتـ الـقـدـيمـةـ كـلـهـاـ .

ولـمـ يـتوـقـفـ عـنـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ الـفـكـرـيـةـ وـحدـهـاـ اـنـماـ جـعـلـهـاـ وـاجـهـةـ لـعـمـلـهـ الـكـبـيرـ الذـىـ بـدـأـهـ فـيـ بـنـاءـ القـوـةـ الـحـرـبـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ وـتـقـوـيـةـ جـيـوشـهـ وـاسـاطـيـلـهـ فـقـدـ اـسـتـخـدـمـ بـعـثـةـ المـانـيـةـ وـلـمـ يـلـبـثـ اـنـ اـنـشـأـ مـعـاهـدـ عـسـكـرـيـةـ دـخـلـهـاـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ الشـبـانـ الـمـمـتـازـيـنـ مـنـ شـبـابـ الـعـربـ مـنـ الـعـرـاقـ وـسـورـيـاـ وـمـصـرـ .ـ وـقـدـ مـضـتـ الـخـطـةـ إـلـىـ غـايـتهاـ

المرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دعاة الفكرة الاسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربي الزاحف والخطر الاوربي القيصري الصهيوني جمیعا ، وتركزت الامال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وترابطت الدول الاسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غایة القوة (فكانوا يذکرُون اسمه في خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية وباسم خلافته على المسلمين کافه) وجعلهم من رعايا دول أوربا في الهند وجزر الهند الشرقية وشمال افريقيا ، وكان السلطان على حد تعبير محمد رفت باشا في كتابه التوجيه السياسي للفكرة العربية « يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها أحيانا ملوبا بسلاح الجهاد الديني ، واستطاع السلطان أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز المسلمين في مجال الفكر والسياسة وفي مقدمتهم : خير الدين التونسي وجمال الدين الافغاني وأبو الهدى الرفاعي الصيادى وأبناء الامير عبد القادر الجزائري .

وأقام من العرب فرقه خاصة ضمها الى الحرس السلطاني وولى كثيرا منهم مناصب رئيسية في الدولة وفي مقدمتهم أحمد عزت العابد . وكان من أكبر أعمال السلطان في هذا الصدد : إنشاء سكة حديد الحجاز التي تربط بين دمشق والمدينة وكذلك فرعها الذي يربط بين الحجاز وبغداد وقد وجد هذا العمل تقديرًا بالغا من المسلمين في كل مكان وتبرعوا له بأكثـر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، فكان من أخطر المشروعات التي عجلت بالقضاء على السلطان فقد كان مندرا للغرب بتغيير اسلامي كبير . وقد استهدف في الاغلب القضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم

فى البحر الاحمر والجزيرة العربية وكان من اخطر مواقف الحركة الاسلامية الواحدة التي دعا اليها وحمل لواءها عبد الحميد : هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين ومواجهتها .

ومن هنا انطلقت الصحافة الاوربية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والتى قاد حركتها خريجو الارساليات التبشيرية ، من امثال : سليم سركيس وفارس نمر ويعقوب صروف وفرح انطون وغيرهم الذين حملوا لواء التشهير باللواء ومعارضته واسعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب الصهيونية العالمية التى انطلقت لاشاعة روح الكراهة والانتقاد للرجل بعد موقفه الحاسم الكريم من مطالبهم وكان أعظم ما تركز عليه هذه الحملة اثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الاسلامية وبين العناصر المختلفة في الدولة العثمانية وخارجها .

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد في مصر اللورد كرومر الذى حمل على فكرة الجامعة الاسلامية حملة ضارية ودعا الدول الاوربية فى تحريض سافر الى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدعوة وكذلك هاجمها هانوتو الفرنسي واللورد غرای ووصفوها بأنها بؤرة التعصب الدينى وانه ليس القصد منها الا تحدى قوات الدول الغربية المسيحية . وقد حملت جريدة المقطم فى مصر لواء معارضه هذه الدعوة .

ولقد شهد كثيرون بأصاله هذه الحركة وقوتها واثرها ، يقول الدكتور توفيق برو : انها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية

الاوربية الطاغية وان قادتها كانوا من الدعاة المبرزين وقد اذكى نار هذا الشعور ائمة من افاضل العلماء أمثال جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلايیني ورشيد رضا الذين قاموا باستغلال هذا الشعور في سبيل سيطرة السلطان في الداخل وتقرير مكانة الدولة في الخارج .

وبعد فلقد كان السلطان عبد الحميد سياسيا قديرا وقرا من اقراص السياسة الدولية ولو لا ذلك ما استطاع أن يصمد في وجه هذه الرياح العاتية وكان قادرا على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلي الذي يؤتججه الاستعمار والصهيونية عن طريق حزب تركيا الفتاة وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف في الدول الغربية وأوجه الخلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست أستطيع أن أصور هذا المعنى بأعظم مما صور به جمال الدين الأفغاني : الذي التقى بالسلطان ساعات ومرات وتدارس معه شؤون العالم الإسلامي ومخاطر السياسة الاوربية ومخططاتها . وذلك بعد أن قدم إلى الاستانة قال : رأيته يعلم دقائق الامور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما وأعظم ما أدهشني ما أعدده من خفي الوسائل وأمضي العوامل كى لا تتفق أوربا على عمل خطير في الممالك العثمانية ويريها عيانا محسوسا ، ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن الا بخراب يعم الامم الاوربية بأسرها . وقال : ان ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره واعداده العدة الازمة لابطال مكاييد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعني الى مد يدي له فبایعته بالخلافة والملك . ١ . ه .

ولقد أكد كثير من المؤرخين والباحثين في انصاف ان السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التي دافع بها الاسلام عن وجوده العالمي وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب ورببيته الصهيونية . ومن الحق أن يقال أن الحركة التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد في تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة كانت اتجاهها طبيعياً وأملاً كل النفوس ، ولذلك فقد حققت نجاحاً كبيراً ، ازعج الاستعمار والصهيونية ازعاجاً شديداً مما استدعى العمل من جانبهم لاجهاضه والقضاء على حامل لواء الدعوة أصلاً كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .

في هذا الضوء يتمثل العمل الذي قامت به الصهيونية من جانبين :

(أولاً) من جانب الدونمة داخل الدولة العثمانية وخاصة في محاصرة السلطان والتأمر عليه .

(ثانياً) من ناحية الصهيونية العالمية في التفاهم مع السلطان عبد الحميد واليأس منه واصدار القرار الحاسم بالعمل على اسقاطه .

(أولاً) الدونمة : هي القوة اليهودية الكامنة داخل الدولة العثمانية التي اختارت مدينة سالونيك ودخلت الاسلام بعد تاريخ طويل معروف ، وهى التي أنشأت المحافل الماسونية في الدولة العثمانية لهذه الغاية واتصلت بجماعة الاتحاد والترقي (وحزب تركيا العتاة) وأفسحت له في محافلها الفرصة للعمل ، وتلاقت الرغبات على التخلص من الوجه الاسلامي لتركيا ومن السلطان

عبد الحميد وكان ذلك قد بدأ يأخذ طريقه بقوة منذ أعلن السلطان عبد الحميد دعوته إلى المسلمين . وكانت قوى كثيرة تشارك اليهودية العالمية في هذا الاتجاه وقد كان السلطان عبد الحميد يعرف هذه القوى التي يواجهها في الداخل ويعرف المؤامرة التي تدبر لفكرته وله وكان يعرف أبعاد المخطط كله : فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم أفكار الثورة الفرنسية ربيبة المحافل الماسونية من ناحية وحركة الارساليات الأجنبية في لبنان وثارها المنشطة في مصر وسوريا والبلاد الإسلامية تحمل أحقادها على الإسلام والوحدة الإسلامية والمحافل الماسونية في سالونيك . وإذا كان السلطان قد عارض مذحت وحزب تركيا الفتاة فقد كان عالما بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية أدلة الصهيونية العالمية في ذلك الوقت وان موقفه دون تمكين اليهود من فلسطين قد حرض كل هذه القوى وأمدها باشارة الانقضاض . ان تصريحات كثيرة للسلطان عبد الحميد تكشف انه كان عالما بأهداف الصهيونية في هذا الوقت المبكر ، ولذلك فقد كان وقوفه في وجه الاتحاديين وتركيا الفتاة وعمله على تحطيم مخططاتهم ليس نابعا من كراهية لهضبة الدولة العثمانية ولكنه كان عمقا في النظرة إلى الأهداف البعيدة لتدمير هذه القوة التي كانت تحمي آمال المسلمين داخل الدولة وخارجها .

ولقد صدق نظره السلطان عبد الحميد على الاتحاديين بعد أن دخلوا التجربة فعلا وسيطروا على الحكم من ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ وما قاموا به من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية مما كشف اصالة عبد الحميد وبعد نظره وجلال موقفه الحاسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة إلى

الوحدة الاسلامية وفي نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التي كانت تحمل مظهاها براقا هو الاصلاح على طريقة الغرب بينما كانت تحمل في أعماقها ايمانا بالفناء في الغرب كله ، ولقد خدع المسلمون والعرب بالاتحاديين وأقاموا الافراح وسرعان ما اكتشفوا انهم سلموا أنفسهم الى فك الاسد وانيابه . ان مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ولكنه كان في موقف لا يستطيع معه ان يكشف المسلمين بالخطر الذى تحيط به .

قد كان اليهود يرون فى السلطنة العثمانية شبحا مخيفا خطرا على مستقبلهم كما يقول الدكتور محمد علي الزغبى فى كتابه الماسونية فى العراء ، وكانت الدونمة بكل مؤسساتها وتدخلاتها أداة التنفيذ فى الوقت المناسب .

(ثانيا) بعد أن عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ وكانت حركة الوحدة الاسلامية قد استحصلت ، كانت وجهة نظر اليهود هي اقتحام فلسطين ولذلك فقد تركزت الخطط حول الدولة العثمانية وحول السلطان عبد الحميد في محاولة لاحتواه ظنا منه أنه في ظرف من الضعف وفي حالة من الاستدانة تجعله يخضع للاغراء ، اغراء اليهود بالذهب وهم من قبل أصحاب العجل الذهبي وبدأت المحاولات منذ ذلك الوقت واتخذت وسائل كثيرة ووسائل متعددة منها وساطة الامبراطور غليوم ولقاء اليهود الثلاثة (مزراحي قراصو - جال - ليون) ولقاء هرتزل ومعه موشى ليوى حاخام اليهود في الدولة العثمانية ولقاء السفير اليهودي غوش وهي سابقة على مقابلة اليهود الثلاثة ثم لقاء هرتزل للسلطان ولرجال قصره .

وقد عرض من خلال هذه المقابلات مشروع يرمي الى تقديم
فرض للدولة العثمانية يبلغ خمسون مليونا من الجنيهات الذهبية -
مليون جنيه لخزانة السلطان الخاصة . بناء أسطول كامل للدفاع
عن أراضى الدولة العلية .

وذلك فى مقابل السماح لليهود بإنشاء مستعمرة صغيرة لهم
قرب القدس ينزل بها أبناء جلدتهم .

وحتى لا نطيل والتفاصيل كلها موجودة والمراجع ثابتة : ننوه
بالرد النهائى للسلطان عبد الحميد : بلغوا الدكتور هرتزل الا يبذل
بعد اليوم شيئا عن المحاولة فى هذا الامر (التوطن بفلسطين)
فإنى لست مستعدا أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب
إلى الغير فالبلاد ليست ملكى بل هي ملك شعبي روى ترابها
بدمائه . فليحتفظ اليهود بما ينبع من الذهب فان الدولة العلية لا
يمكن أن تخربىء وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام .

لست مستعدا لأن أتحمل في التاريخ وصمة بيع بيت
المقدس لليهود وخيانة الأمانة التي كلفنى المسلمون بحمايتها .

ان ديون الدولة ليست عارا لأن غيرها من الدول الأخرى
مدین مثل فرنسا . ان بيت المقدس قد افتحه المسلمون اول مرة
بخلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولست مستعدا أن
أتحمل في التاريخ وصمة بيعها لليهود وخيانة الأمانة وقد أورد
هرتزل في مذكراته التي طبعت بالألمانية في تل أبيب عام ١٩٢٤
قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة : ان
السلطان عبد الحميد الشريف الفذ الذي أخفى عن المسلمين

والعرب منذ عام ١٩٠٩ حتى سنوات قريبة عندما ترجمت مذكرات هرتزل وكان أول من أشار إلى هذا النص الاستاذ أحمد الشقيري في دروسه في معهد الدراسات العربية بالقاهرة منذ عشر سنوات وقد ظل المسلمون والعرب خلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً يرمون الرجل عن قوس واحدة لأن الاستعمار الصهيوني والصحف العربية التي أصدرها تلاميذ مدارس الارساليات وخاصة في مصر (المقطم ، الاهرام ، الهلال ، المقتطف ، مجلة سركيس) وعشرات من هذه الصحف كانت تصف عبد الحميد بالسلطان الاحمر المستبد . وقد انتقلت هذه العبارات من الصحف إلى كتب التاريخ وكتب تاريخ الادب العربي ، وما من كتاب أرخ هذه الفترة إلا احتوى على هذه العبارات التي أصبحت مسلمات بالإضافة إلى تعبير آخر سنعود له من بعد وهو « الاستعمار التركي العثماني » .

كانت هذه العبارات النارية التي وجهها السلطان عبد الحميد إلى هرتزل عام ١٩٠٢ ايداناً بتلك الحملة العاتية على السلطان بعد أن تقرر ازاحتة وكانت هذه الحملات التي وجهت إليه تمهيداً واعداداً للرأي العام لهذا الغرض . ولقد جرت منذ ذلك الوقت محاولات لاغتياله واسقاطه حتى وقع ذلك عام ١٩٠٨ بالانقلاب الذي قام به الاتحاديون بالاشتراك مع الماسونية ممثلة في الدونمة .

ولا تزال عبارات عبد الحميد نبراساً مضيئاً وتابعاً لاماً وشرفاً ما بعده شرف ، يتوج جبينه في تاريخه المعاصر ، وعند ربه ، ويتردد عنه ومن حوله كل الاشاعات والشبهات والاضاليل . وقد تبين من بعد في وثائق كثيرة وانكشف الستار عن مؤامرة قلب

الدولة العثمانية وانزال عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه الجريمة البشعة . والمؤامرة العالمية لتحطيم الوحدة العجذرية والرابطة العضوية القائمة بينعروبة والاسلام ولقد تحقق فعلاً لليهود وللاستعمار باسقاط عبد الحميد كل ما كانوا يرجونه ولم تلبث الهجرة الى فلسطين أن بدأت سافرة منذ ذلك الحين وتحقق ذلك الامل الذى استعصى سنوات وسنوات ، وكان ذلك مقدمة لا شك فيها للقضاء على الخلافة الاسلامية .

ولقد كان ضرورياً للباحث المتمهل المنصف أن يقف دائمًا من تاريخ الدولة العثمانية في العصر الأخير موقف العدل والصدق وأن يفرق بين عهدين : عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ تقريباً وعهد حكم الاتحاديين الذي بدأ منذ ذلك الوقت وظل مستمراً حتى أسلم أمره إلى الكماليين بعد الحرب العالمية الأولى . فهذه التفرقة واضحة وضرورية خاصة بالنسبة لنا في المشرق : ذلك أن سوريا ولبنان والعراق قبل ذلك تعيش في هذا الاتجاه المعارض للخلافة والسلطان بينما كانت مصر التي سقطت عنها ولاية الدولة العثمانية وسيطر عليها الاستعمار البريطاني منذ ١٨٨٢ تؤيد الخلافة والسلطان ولقد كان لموقف حكومة الاتحاد التركى من أهل سوريا ولبنان ومحاكمة رجالهم وتعليقهم على المشانق عام ١٩١٦ أثراً نفسياً بعيداً في نظرتهم الكلية إلى الدولة العثمانية والحقيقة أنها يجب أن تكون قاصرة على الاتحاديين وحدهم .

ومن هنا وجوب التفريق بين مرحلة السلطان عبد الحميد التي انتهت عام ١٩٠٨ وهي فترة كان موقف الدولة العثمانية فيها بالنسبة

للعرب والمسلمين موقفاً كريماً ، وكانت الحركة الاسلامية الواحدة من اعظم الاعمال ، أما الفترة التالية التي حكم فيها الذين اسقطاوا السلطان فانها تمثلأسود صفحات الحكم التركى ولاءاً للصهيونية والاستعمار وضرراً للوحدة الاسلامية واعلاء للحركة الطورانية ، ومحاولة لتتركى العرب فى سوريا وتعليق زعمائهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هي التي يقف فيها العرب من سوريا موقفاً مخصوصاً للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك نجد أنه من الضروري أن نصحح عبارة « الاستعمار التركى » أو العثمانى . الواقع أن كلمة استعمار كلمة مستحدثة مرتبطة الى حد كبير بدول مسيطرة بقوة الحديد والنار تأخذ ثروات الامم بأبخس الائتمان لتجعلها مواداً خاماً لمصانعها ثم تعيد الى هذه الامم متوجاتها لبيعها بأعلى الاسعار ، وهذا النظام الاستعماري لم يكن موجوداً في هذه الفترة ولم تكن الدولة العثمانية بهذا المعنى دولة مستعمرة ، كذلك فان الاجزاء العربية التي انضمت الى الدولة العثمانية لم تكن قد انضمت باحتلال وقسر ولكنها كانت برضاء ودعوة ، فقد وجد العرب أنفسهم بعد ضعف المماليك في حاجة الى الالقاء تحت اسم الاسلام مع هذه الدولة الكبرى رغبة في الوحدة ومحافظة على النفس . وبعد أن تعرضت سوريا ومصر لمحاولات غزو صليبي متجدد من الغرب ، والمعروف أن العرب في مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها حيث وجدوا في العثمانيين اخوانهم في العقيدة والدين متعدشاً جديداً للإسلام . وقد أكد المؤرخون والباحثون أن هذا الالقاء بالعرب والترك في ظل الدولة العثمانية قد

حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الص资料ي
الذى لم يلبث أن جاء بعد ضعف الدولة العثمانية .

والواقع أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم يتجاوزها الزمن
ولقد تبين للمسلمين اليوم بعد سنوات طويلة من الدعوات الاقليمية
والقومية ان الوحدة الاسلامية هي الاصل الاصيل والوجهة
الصحيحة وكل الدلائل تؤكد الان ان المسلمين سائرون الى طريق
الوحدة الذى حطمه اليهودية والاستعمار باسقاط عبد الحميد والغاء
الخلافة .

حاشية :

عندما عقد الملتقى الاسلامي الثامن فى ولاية بجايه من
جمهورية الجزائر عام ١٩٧٤ وأثار كعادته فى كل عام عددا من
القضايا والمعضلات التى تواجه الفكر الاسلامي فى العصر
الحديث وقد اشترك فى الملتقى عدد كبير من الباحثين والعلماء من
 مختلف أنحاء العالم الاسلامي كما شارك فيه ممثلون للمسلمين
 فى الهند واليابان كانت أبرز القضايا التى تناولها البحث :

- وضع الاقليات والجاليات عموماً والاسلامية خصوصاً في
كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال
الاعلام نحوها .

وقد أشارت الدكتورة ليلى الصباغ من أساتذة التاريخ بجامعة
دمشق الى الدولة العثمانية اشارة ظالمة حين قالت : انها أسلمت
البلاد العربية لقمة سائفة للاستعمار الغربى . وقد تصدى لها عدد
من الباحثين الجزائريين وعرضوا لوجهة نظرهم ازاء الدولة العثمانية

والدور الكبير الذى قامت به ازاء حماية المغرب كله من الغزو الأوروبي وتوالت المطالبة بمعرفة دور المشرق وقد تصدى كاتب هذه السطور لذلك فقال :

رغبة فى تغطية قضية الدولة العثمانية بوجهة نظر المشرق والعرب ومصر بالإضافة الى وجهة النظر المغربية الجزائرية فى هذه المسألة نقول : لقد تأثرنا فى مصر والمشرق فى كتابنا المدرسية وابحاثنا التاريخية بوجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمانية ، وهى وجهة خاصة للغربيين ، نتيجة التوسع التركى عرفتها مناطق البلقان وغيرها فى القرن التاسع عشر ، وقد نقل الاستعمار البريطانى فى مصر ، والفرنسى فى سوريا ، وجهة النظر هذه الى كتب التاريخ التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا ، كما تأثر بها بعض مؤرخينا متابعة للنظرة الغربية ، أو تحت تأثير الدعوات الاقليمية كالفرعونية الفينيقية وغيرها غير ان هذه النظرة تعمقت من بعد وبلغت أقصى غایاتها فى تجاوز الحقيقة ، على أثر ظهور الصحافة العربية التى حررها وأخرجها اللبنانيون المارون ، خريجو معاهد الارساليات ، وأصحاب العداء الواضح للدولة العثمانية .

وزاد هذه النظرة عنفا وتعصبا : تلك المحاولة الخطيرة التى طرحتها الصهيونية العالمية بعد عام ١٩٠٢ لتشويه شخصية السلطان عبد الحميد ورميه بالاتهامات كأمثال السلطان الاحمر والمستبد العثماني وغيره ، وكلها كانت محاولات أريد بها تهيئة الأذهان للقضاء عليه وانتزاعه من مكانه ، وقد عاونت المقطم والاهرام والهلال والمقتطف وكلها كانت لبنانية الاصل فى هذه الحملة وكان ذلك على أثر الموقف الحاسم الذى وقفه السلطان عبد الحميد من

المحاولات المتصلة التي جرت خلال الاعوام السابقة لعام ١٩٠٢ والذى أرسل فيه السلطان خطابه التاريخي الى الصحفى اليهودى ثيودور هرتزل صاحب كتاب الدولة اليهودية ومؤسس الصهيونية الحديثة وقد جاء فى هذا الخطاب بالنص :

قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بي مرة أخرى ، ان بلادى تفضل أن تظل مدينة على أن تسدد ديونها من ذهب اليهود ، ان فلسطين هى بلاد العرب ولا أستطيع أن أفرط فى شبر منها . وكان الدكتور هرتزل قد عرض على السلطان خمسين مليونا من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة وخمسة ملايين من الجنierات الذهب لخزانة السلطان الخاصة الى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديا .

وقد سجل هرتزل في مذكراته كيف حاول اغراء ذلك الرجل الكرييم أشد اغراء ثم كشفت وثائق التاريخ من بعد كيف جرت المحاولات لقتله ثم اسقاطه وقد أغوى أشد اغراء وهدد أشد تهديد ولكنه صمد صموداً مشرفاً وظل موقفه هذا محجوباً عن الصحافة وعن المدارس والجامعات وكتب التاريخ سنوات طويلة حتى ترجمت مذكرات هرتزل في السنوات الأخيرة ، وظل اسم السلطان عبد الحميد يذكر في كتبنا المدرسية مشفوعاً بأبشع الاتهامات حتى أحق الله الحق وكشف ذلك الزيف الذي حاول به الاستعمار وحاولت الصهيونية إيقاع الفرقه والخلاف بين العرب في مصر والشام وبين الدولة العثمانية .

وللحقيقة فإننا يجب أن نفرق بين عهدين في تاريخ علاقتنا بالدولة العثمانية : فترة السلطان عبد الحميد التي تنتهي عام ١٩٠٨

باستيلاء الاتحاديين تلاميذ حزب الاتحاد والترقي واتابع الماسونية وربائب الدونمة وبين الفترة التالية التي استمرت حتى عام ١٩١٨ وهي الفترة التي تمثل أسود صفحات العلاقة بين العرب والترك ، وهي ليست من حساب الحكم التركي الاسلامى ولكنها مرحلة متقدمة لخدمة الصهيونية العالمية ونصرها وتشكيل أول محاولة لضرب الوحدة الاسلامية العربية ، باعلاء الدعوة الطورانية ، ومحاولة تشيريك العرب فى سوريا وتعليقهم على المشائق ، هذه الفترة وحدها هي التي يقف منها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك فان النظرة الى الدولة العثمانية عام ١٩١٦ عندما انضمت الاجزاء العربية فى العراق وسوريا ومصر اليها ، فانها فى التحليل التاريخي الدقيق ليست سوى التقاء بين عنصرين مسلمين . وقد وجدت من جانب العرب تقبلا صادقا فهى ليست فى حقيقتها الا محاولة طبيعية من محاولات الالقاء والتكمال بين اجزاء العالم الاسلامى فى مواجهة الاخطار وقد جاءت هذه الوحدة الاسلامية بين العرب والترك على اثر ضعف قوى المماليك وتعرض الاجزاء العربية وخاصة الشام ومصر لتجدد الغزو الصليبي . والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية ولم يعارضوها ، حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين متتعشا جديدا للإسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الاسلام خفافة عالية . وقد أكد الباحثون أن هذا اللقاء بين العرب والاتراك قد حمى العالم الاسلامى أكثر من أربعمائة عام من الغزو الصليبي للمرة التالية .

ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا في هذه المرحلة الأولى بالأخذ بمقاصد الإسلام في نطاق الحكم وتحركوا من خلال إطاره . ويشهد المؤرخون غير المتعصبين على الإسلام أو الناقمين على الدولة العثمانية بأن العثمانيين قد اقتدوا أثر الخلفاء الأولين في العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوا هم قدوة وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء وإنشاء المساجد والمدارس ومن هنا فقد جرت محاولات البحوث الاستعمارية على وصف العلاقة بين العرب والترك بأنها نوع من الاستعمار وهي ليست كذلك في الحقيقة وإنما هذا من النظريات المدخلة التي يحاول الغزو الفكري والتبشير إذاعتها لاقراراتها في الأذهان .

ولقد مررت الدولة العثمانية بكل كائن حتى بمرحلة القوة ثم بمرحلة الضعف ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يعرف أساليب الاستعمار ويواجهها في دهاء وبراعة وقد شهد جمال الدين الأفغاني حين التقى به بأن عبد الحميد يدب لأوروبا في مواجهة كل محاولة ردا وفي مقابل كل مؤامرة أمرا . كل مؤامرة أمرا .

لم يكن الخلاف أذن بين العرب والترك ولكنه كان بين العرب والاتحاديين دعابة الطورانية فلنفرق دائما بين هذه المراحل ولنعرف أنه قد نشأ في مصر والبلاد العربية الان تيار قوي لتصحيح هذه الاخطاء على ضوء ما كشفته الوثائق من بروتوكولات صهيون أو ما نشر عن مؤامرات الماسونية على النحو الذي يعيد الحقائق إلى نصابها في طريق وحدة الفكر الإسلامي المتوجه إلى وحدة الفكر الإسلامي كمقدمة للوحدة الإسلامية التي هي أمل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

الباب الرابع

السلطان عبد الحميد

صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم
الصهيونية لمواجهة الاستعمار

ما نحسب أن شخصية في التاريخ الإسلامي المعاصر
لقيت من الغبن والظلم والاعنات ما لقيت شخصية السلطان عبد
الحميد الثاني ، ولكن هذه السحابة ما لبثت أن انجابت بعد
سنوات طوال ، وتكشفت حقيقة هذا الرجل واستعلن موقنه
الصادم ، وجهاده الباسل ومقاومته العنيفة للمؤامرة الضخمة التي
حاولت أن تستغله وتخدعه أو تغريه ، ولكنه رفض الوعود
والاغراء ، وتحمل الوعيد والتأمر صابرا صابرا طوال حياته وسنوات
طويلة بعد موته .

وقد ظل الغموض يحيط بموقف السلطان عبد الحميد أكثر
من خمسين عاما ، ثم لم يلبث أن تكشف قليلا قليلا ، لقد تولى
السلطان ١٨٧٦ ، وخلع ١٩٠٩ وتوفي ١٩١٨ .

وكانت حملات الصحف المارونية قد بدأت منذ تبين صلابة
موقف الرجل ، وقد استمرت هذه الحملات حتى دخلت إلى كتب

الأدب والتاريخ المقرر على المدارس في أغلب البلاد العربية وظلت هذه الكتابات تلح على تصوير السلطان عبد الحميد بصورة الطاغية . . المتسلط فترة تزيد على خمسين عاما ، ثم بدأ ينكشف موقف السلطان جزئيا بعد ترجمة بروتوكولات حكماء صهيون التي كشفت مخطط المؤامرة على الدولة العثمانية والخلافة ، ثم تكشفت بصورة أوسع بعد ترجمة مذكرات هرتزل الذي روى بياضه وتوسيع قصة الوساطة بينه وبين السلطان وعروضه ورد السلطان عليه .

رجل أريب :

ومن أهم ما يكشف عنه تاريخ السلطان عبد الحميد هو ذلك الفهم الوافر العميق للمؤامرة اليهودية الصهيونية ، الممتدة من الماسونية إلى الدونمة إلى جماعة الاتحاد والترقي بكل أبعادها وأهدافها ، هذه التي كانت خافية على ظاهر المواقف السياسية في البلاد العربية الإسلامية في ذلك الوقت ، وكانت غامضة على الرأي العام في وقتها ، بينما كانت واضحة مفهومة لدى السلطان .

وكانت تصرفاته استجابة لهذه الخفايا التي كانت تدبر ، ولم تكن مكشوفة إلا للقلة ، وكل ما نسب إلى السلطان عبد الحميد من اتهام بالرجعية أو الجمود أو العنف ، ازاء الاتحاديين أو الدستور أو الحرريات ، إنما كان ينطلق من فهمه لأبعاد المؤامرة التي كان يدبرها الاتحاديون الأتراك مع اليهود الدونمة والقوى الخارجية ، لاسقاط الدولة العثمانية وعزل السلطان عبد الحميد ، واسباح المجال أمام تحقيق مؤامراتهم ، بعد أن تبين لهم رفضه الصريح للعروض اليهودية التي قدمها له هرتزل وعد آخر من

اليهود - على ما فيها من اغراء - مادى لدولة مدينة فى ذلك الوقت ، وقد ظلت هذه الحقائق غامضة ، حتى تكشفت من بعد أسرار الماسونية ومخطط الصهيونية .

دهاء السلطان عوض عن ضعف الدولة :

ولعل أبرز ما تميز به السلطان عبد الحميد الذى حكم من (١٨٧٦ الى ١٩٠٩) هو تلك البراعة والذكاء الخارقين . حتى وصفه أعداؤه قبل أنصاره بأنه أعظم داهية فى عصره .

ويمكن القول أن هذا الرجل حين رأى الدولة العثمانية وقد فقدت التفوق فى القوة العسكرية التى يمكن بها أن تظهر أعداءها فقد فتح الله تبارك وتعالى له بابا من التعويض عن طريق ذلك الدهاء القوى ، فاستطاع خلال هذه الفترة الطويلة من حكمه والتى بدأت فيها تلك المؤامرة الخطيرة ، أن يواجه الأمر بحكمة أزعجت خصومه وأعجزتهم .

والمعروف أنه فى عام ١٨٩٧ اجتمع مؤتمر بال وقرر اختيار فلسطين لاقامة الوطن القومى اليهودى ، وتحدد أمر الاتصال بالسلطان والدولة العثمانية ، ومن ثم بدأت المعركة الخفية بين السلطان واليهود ، وخاصة بعد أن تبين لهم اصراره على عدم التسلیم لهم بأى مطعم في فلسطين .

وكان السلطان عبد الحميد قبل ذلك قد أمضى عزيته فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وتجميع المسلمين من خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة ، لمواجهة خطر النفوذ الاستعماري الزاحف على العالم الاسلامى .

ولقد لقيت صيحته استجابة في خارج الدولة العثمانية - بوصفه زعيمًا للعالم الإسلامي كله وليس للدولة العثمانية وحدها - والتف حوله العرب والمسلمون والفرس والترك ، لتعضيد الخلافة وللزود عنها دون قيد أو شرط .

وكان من أخطر هذه الانجازات تصفية موقف الخلاف بين تركيا وفارس وبين السنة والشيعة ، ومن كلماته في هذا الصدد : أن السم القديم يجب ألا يسرى في جسد آسيا القوى وعلى السنين والشيعة أن يتحدون لمقاومة أوروبا في محاولتها قهر العالم .

* * *

المؤرخون ورأيهم :

ويرى المؤرخون أن عبد الحميد لما تولى الخلافة سنة 1876 ، وجد أن سلاح الدهاء السياسي هو السلاح الوحيد الذي يستطيع به أن يواجه مؤامرات الغرب (الاستعمار والصهيونية وروسيا القيصرية) التي كانت منذ سنوات طوال تحيك المؤامرات للقضاء على الدولة العثمانية ، برصفها ممثلة للوحدة الإسلامية القائمة بين العرب والترك ، ومن ثم أخذ يوسع دائرة هذه الوحدة لتشمل مسلمي العالم كله ، ومن ذلك كانت صيحته « يا مسلمي العالم اتحدوا » ازاء الغزو الاستعماري .

فقد أخذ يستصرخ الأمم الإسلامية في كل رقعة من رقاع العالم الإسلامي ، للالتفاف حول دولة الخلافة لتكوين قيادة عامة للمسلمين جميعا ، سنة وشيعة عربا وفرسا وتركا ، وقد جمع

السلطان حوله عدداً كبيراً من زعماء العرب والبلاد الإسلامية ، وقد شعرت إنجلترا وفرنسا وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان قهراً أكبر عدد من المسلمين - بحرج الموقف ازاء التفاف العالم الإسلامي حول الخليفة وحسبت لذلك ألف حساب ، لا سيما حينما أيدته المانيا العدوة لهذه الدول ، وحين كسر الخلاف مع الشيعة ، وبدأ يعقد صلح معهم بعد استقدام جمال الدين الأفغاني ، وحين بدأ يتخد الأسلوب العصري في الوحدة بإقامة سكة حديد الحجاز ، وقد جمع لها سبعة ملايين من الدنانير ، وكذلك سكة حديد بغداد .

وقد أشارت الدكتورة الماولتن في كتابها عنه ، أنه كان لديه أربعون ألفاً من الدعاة للوحدة الإسلامية ، ومن كانوا في القسطنطينية من طلبة المعاهد الإسلامية ، وقد وجه دعوته إلى روسيا وشمال إفريقيا والهند والصين ، وإلى المسلمين أينما وجدوا ومن أي جنس كانوا ، وقد حدث هذا في الوقت الذي كانت الدول الأوربية تترقب بفارغ الصبر موت « دولة الرجل المريض » لتقسيم ميراثها وتوزيع إرثها فيما بينها .

* * *

رجل يرجع عظماء العصر :

وليس أدل على براعة السلطان عبد الحميد ، من عبارة السيد جمال الدين الأفغاني الذي قال ، بعد أن التقى بالسلطان وتعرف إلى مشروعه في الجامعة الإسلامية وأسلوبه في العمل السياسي مع دول أوروبا : « ان السلطان عبد الحميد لو وزن مع

أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة » فلا عجب اذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب أنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية ، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسليما . وأعظم ما أدهشنى ما أعدده من خفى المسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق اوروبا على أمر خطير في الممالك العثمانية وكان يراها عيانا محسوسا : ان تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تقع الا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها ، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدول بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربظوه وتفريق ما

جمعوه » .

وقد وصفت خطة السلطان بأنها تمثل « سياسة التوازن الدولي » التي كان من شأنها أن تبقى الدول الغربية متحاسدة متنابذة في الأمور التي تتعلق بتركيا ومستقبلها .

* * *

ليس الخلاص في المدينة الغربية :

وقد أشارت الدكتورة الماولتن الى أن السلطان عبد الحميد كان أول من تجرأ - بعد مائتين عام من الهزيمة والتقهقر - على تحدي العالم الغربي ، ومن ذلك قوله : « يجب ألا ندع الغرب يبهرنا فان الخلاص ليس في المدينة الأوروبية وحدها » ، قوله : « ان تركيا هي نافذة الاسلام التي سيشع منها النور الجديد » .

وقد وجدت دعوته أصداء واسعة وكان لتنقلات الدعاة ، والمبشرين المسلمين الى هذه المسافات البعيدة التي كان عليهم

أن يقطعوها للوصول الى الجماعات الاسلامية المفترقة ، كان لذلك أبعد الأثر في النتائج الحاسمة السريعة فكان يتلقى ألف الرسائل والوثائق الرسمية من مختلف أنحاء العالم تتضمن تأييد الملاليين للسلطان ايمانا بفكرته وتعلقا بحركة الجامعة الاسلامية .

وأشار تقرير سفير بريطانيا لدى الباب العالى سنة ١٩٠٧ الى هذا الخطر بقوله : « يمكننا أن نقرر أن من أهم حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل (١٨٩٧ - ١٩٠٧) خطة السلطان الباهرة ، التي استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلماً في ثوب الخليفة - الذي هو الرئيس الروحي في الدين الاسلامي - وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة فقد أصبح حائزها على خصوص رعاياه له خصوصاً أعمى » .

* * *

عملان جليلان :

وأشار كثير من المؤرخين الى العملين الكبيرين - اللذين عجل بإسقاط السلطان عبد الحميد - وهما :

- ١ - انهاء الخلاف بين السلطان والشاه وتصافحهما ، هذا الخلاف الذي كان منذ مدة طويلة ينخر في عظام العالم الاسلامي .
- ٢ - قرار مد خط حديدي الى مكة المكرمة كجزء من خطة الجامعة الاسلامية لمساعدة آلاف المسلمين على أداء فريضة الحج ، وقد نهض بالمشروع في حماسة بالغة وحشد له كل ما

استطاع من جهد مادى وبشرى ، حتى أتم انجازه بسرعة خارقة
وبدون أى عنون من أوروبا .

وقالت الدكتورة الماولتن : « لقد استطاع أن يقود تركيا بعيدا
عن الكارثة بمناوراته السياسية البارعة ، موازنا بين مقاطعاته ودول
أوروبا ، مستحثا الهمم رافعا الآمال ، موجها انتباه العالم نحو أشياء
جديدة ، كلما كان التوتر يهدد بأن يصبح حادا .

وكانت خطته لاستعادة قوة تركيا ومجدها عن طريق توحيد
العالم الاسلامى تقترب من النجاح » .

* * *

العنصرية والقوميات :

ومن هذه النقطة ضرب السلطان عبد الحميد ، فقد كان
يواجه تيارا ضخما من المطامع للدول الأوروبية والصهيونية وروسيا
فى تمزيق امبراطوريه ، وكان السلاح هو تسلیط سلاح العنصرية
الذى حمله رجال تركيا الفتاة والاتحاد والترقى بالدعوة الى
الطورانية ، وأزرتهم الدونمة التى كانت تمهد للوصول الى
فلسطين ، وواجه السلطان عبد الحميد هذا المخطط بقوة وبسالة ،
وفي نفس الوقت الذى بدأ فيه هرتزل محاولته لمقابلة السلطان ،
كان السلطان قد أصدر أوامره بفصل « سنجق القدس » - مركزى
وادارى - عن ولاية سوريا عام ١٨٨٧ وانضاعه لادارته المباشرة ،
بمجرد أن تكشفت له المرامى البعيدة وراء المخططات الصهيونية .
وعندما شرع هرتزل يفكر فى مقابلة السلطان ملتمسا مختلف
الوسائل والطرق ليسترعى انتباه الباب العالى ، كان عبد الحميد

واعياً لكل المحاولات ، فقد سعى هرتزل لدى بسمارك حيث كانت ألمانيا حليفة لتركيا ، وسعى عند كثرين من الشخصيات البارزة ، وكان هدفه أن يقنع السلطان بإعطائهم مساحة من الأرض ، مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة العثمانية والتأثير على الرأي العام الأوروبي ليقف إلى جانب السلطان .

وتععددت المحاولات ، واستمع إليه السلطان حيث دار الحديث حول مشاكل الدولة العثمانية وتصفيية الدين العام وعرض هرتزل خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية للدولة ، وخمسة ملايين لخزينة السلطان الخاصة .

* * *

جسم وحرم

ولكن السلطان كان متشبهاً ب موقفه المعارض للهجرة اليهودية ، ولما توالى العروض حسم الموقف في حزم .

« أنسح للدكتور هرتزل أن لا يسير أبداً في هذا الأمر ، لا أقدر أن أبيع ولو قدموا واحداً من البلاد ، لأنها ليست لي بل لشعبى ولقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإراقة الدماء وقد غذتها بعد بدمائها ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منها .

ليحتفظ اليهود بمالاينهم فإذا ما قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون قتال .. إننا لن نقسم إلا جثنا ، ولن أقبل بتشریح أجسادنا لاي غرض كان (يونيو ١٨٩٦) » .

ولما توالت النذر أصدر السلطان فى يونيو ١٨٩٨ أمراً بمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم .

* * *

التهديد والتآمر

ولما استيأس هرتزل من السلطان بعد الاغراء بدأت مرحلة التهديد ، فاستخدم اليهود قدراتهم فى التآمر للقضاء على الدولة العثمانية ، مؤكدين مؤامراتهم على السلطان عبد الحميد بالذات ، لأنه كان العقبة الكثيرة فى طريقهم ، فرموه بكل منقصة وأظهروه للأمة فى أبغض صورة .

وانطلقت أبواقفهم من الصحف المارونية الموجهة من المسونية والنفوذ الأجنبى تحمل عليه : المقطر والأهرام والمقططف والهلال ، وكتابات جرجى زيدان وسليم سركيس وفارس نمر ، تصفه بالسلطان الأحمر ، وألف جرجى زيدان قصة الاستبداد العثمانى ورمى السلطان بعشرات من الاتهامات الباطلة تمهدًا للقضاء عليه وجرت محاولة اغتياله ثم اسقاطه .

* * *

ملاعب الأهواء :

وقد نجح اليهود فى اخراج جمعية الاتحاد والترقي إلى ملعب أهوائهم السياسية ، وقد كانت هذه الجمعية هي القناع الخارجى الذى تقنعت به جماعة الدونمة المتظاهرين بالاسلام من يهود إسبانيا ، الذين اتخذوا من مدينة سالونيك مقاماً لهم بعد

فرارهم من محاكم التفتيش الاسپانية ، وقد جاءوا بالانقلاب العثمانى الذى بيتوا له منذ نصف قرن حتى تم على أيدي مسلمين كانوا يهودا فى الأصل فأسلموا لأجل هذه الغاية .

وقد أسلم الانقلاب زمام تركيا لليهود الماسونيون الدونمة (طلعت وجاويد وجمال ونيازى وكمال) الذين دفعوا تركيا بتوجيهه (وايزمان) لخوض حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل سلموها لليهود الذين يتكلمون التركية .

* * *

ويقول الدكتور الزعبي في كتابه (الماسونية في العراء) :

كان اليهود يرون السلطنة العثمانية - وهى شبح مخيف للخلافة الاسلامية - خطرا على مستقبلهم ، وقد زار هرتزل السلطان وعرض عليه عروضا مغربية فرفض ، فقرر المحفل الماسوني الكوئنى خلع السلطان عبد الحميد ، وكلف « فرسان تركيا الحكماء المستنيرين » بتنفيذ القرار فنفذوه عام ١٩٠٩ .

يقول السيد رشيد رضا : لقد كان السلطان عبد الحميد عدوا للجمعية الماسونية ، لاعتقاده أنها جمعية سرية وأن غرضها هو ازالة السلطة الدينية من حكومات الأرض ، وقد تنفس الزمان للماسون بعد الانقلاب الذى كان لهم فيه أصابع معروفة ، فأسسوا شرقا - محفلا - عثمانيا استاذه الأعظم طلعت بك ناظر الداخلية ، وأركانه جمعية الاتحاد والترقى وأنصارها من اليهود وغيرهم ، ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا برضاهما ، فى

ادارته التى استغاثت منها المملكة بولاياتها الستة كلها ، ما عدا ولاية سلانيك ، وسلامنیك هى مقر السلطة الحقيقة فى المملكة (المنارم ١٤ ص ٨٠) .

* * *

الخطر المحيط :

يقول جواد رفعت فى كتابه « الخطر المحيط بالاسلام » :

« ان الشخص الوحيد فى تاريخ الترك جميعه ، الذى عرف حقيقة الصهيونية « والسباتائية » وقد اضرارهما على الترك والاسلام وخطرهما المحقق تماماً وكافح معهما مدة طويلة بصورة جديدة لتحديد شرورهم ، هو السلطان العثمانى : الثالث والثلاثون (عبد الحميد الثاني) فقط ، وان هذا السلطان التركى العظيم كافح هذه المنظمات الخطيرة مدة ثلات وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال » .

ويتسائل الناس : لماذا يقف السلطان عبد الحميد ضد الدستور ويتحرز من هؤلاء الأحرار وأنه كان يعرف أنهم صناعة المحافل الماسونية ، وأنهم كانوا في مخطط الصهيونية العالمية التي قررت اسقاط عبد الحميد بأى ثمن ، بالاتفاق مع الاستعمار العالمي الذي كان يطمع في دحر فكرة الجامعة الاسلامية أكبر خطر الشيعة » .

* * *

التنفيذ :

ويقول المؤرخون المنصفون : ان اليهود أخذوا توا فى تنفيذ المادة الخامسة من البروتوكولات : التى تنص على وجوب تلفيق الواقع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس ، للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم ، ومن هنا بدأت حملة الكره ضد السلطان ، حيث لفقوا وقائع حياله وقضائيا تحت اسم القتل والحرق والاغراق ، ثم كانت مؤامرة اغتيال السلطان حيث انفجرت قنبلة على موكيه بعد صلاة الجمعة ، مقدمة لخطط ومؤامرات انتهت بعزله ، وسيطرة الاتحاديين الذين فتحوا الطريق لليهود الى فلسطين وسلموا طرابلس الغرب الى ايطاليا .

يقول الاستاذ طه الولي : كان غاية اليهود ازاحة عبد الحميد من طريقهم الموصل الى فلسطين ، ولذلك فقد تمكنا من رشوة بعض رجال الدين ، وأغرقوهم بالخروج الى الشوارع والمناداة بتطبيق الشريعة المحمدية ، وهو ما سمي يومئذ بحركة الارتجاع قاصدين من وراء ذلك احراج السلطان بعد اعلان الدستور ودفع الاتحاديين الى الثورة عليه ، فيما بعد .

وقد أتت هذه الحركة الارتجاعية كلها بالنصر لليهود فقام الجيش بحركته الحاسمة متقدما نحو يلدز ، طالبا ازاحة العرش من تحت سلطانه ، فتقدم ثلاثة في ٧ مارس ١٩٠٩ من أعيان الدولة : مسلم مأجور ويهودي حقود ونصرانى موتور وقدموا اليه ورقة للتنازل عن العرش .

وقبل السلطان حقنا للدماء وقد صرخ بذلك في رسالته الى الشيخ محمد أبو الشامات قال :

« اننى لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما سوى أننى بسبب المضايقه من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون ترك) قد أصرروا وأصروا على بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأراضي المقدسة (فلسطين) ، ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وكان جوابى القطعى : أنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا ، لن أقبل تكليفكم ، وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعي ، فحمدت المولى أننى لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الأبدى ، الناشيء عن تكليفها بإقامة دولة يهودية فى الأراضي المقدسة (فلسطين) . »

* * *

الصورة الزائفة :

هذه هي الصورة الصحيحة التي تجلت في السنوات الأخيرة عن حقيقة السلطان ووجهته ، أما الصورة التي رسمها سليمان البستاني في كتابه : « الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده » ، وكتابات جرجى زيدان وسليم سركيس ، وهؤلاء الطغمة من أعداء الاسلام ، فإنها زائفة ومضللة ، وقد طلعت عليها شمس الحقيقة وأنوار الواقع الصحيحة المؤثقة ، إنها كتابات زائفة أريد بها تهويين شأن السلطان عبد الحميد تمهدًا لعزله أو قتله ، وقد كانت في سبيل خدمة النفوذ الصهيوني أساسا .

أما المنصفون من كتاب الغرب فقد شهدوا للسلطان عبد الحميد وفي مقدمتهم « لوثروب ستواتر » في كتابه حاضر العالم الاسلامي ، كما تكشفت الحقائق حول الواقع الزائف التي نسبوها

اليه ، وخاصة بالنسبة لحياته الخاصة ، وقد عرف عنه العزوف عن مظاهر الترف ، وقد اكتفى من ملبيه الرسمي بالمعطف العاطل من الزخرف وقد كان يقضى وقته كله فى دراسة التقارير المطولة التى ترد اليه من سائر جهات الامبراطورية الى ساعة متأخرة من الليل ، وقد تكشف كذب ادعاءات : الاغراق فى البوسفور والخنق وكلها اتهامات أوردها اليهود ، وليس لها سند صحيح ، وقد كشف الاستاذ سعيد الأفغاني هذا الأمر فى حديث له نشره فى مجلة الوعى الاسلامى (شباط ١٩٦٩) بعد زيارة لتركيا .

قال : فلما أخذنا ذكر الألوف من الأحرار الذين لا يحصون الذين أغرقهم السلطان عبد الحميد فى مياه البوسفور ، أبدى رئيس الهيئة فى رقة ولطف طالبا تسمية عشرة فقط من هذه الألوف التى لا تحصى ، فلما أحرجنا قال : يا أخوتى لم يثبت غرق انسان واحد فى البوسفور وهى اشاعات استطارت وخدعت الكثيرين ومنهم حافظ ابراهيم الشاعر فى قصيده : (مشبع المحوت من لحوم البرايا) .

* * *

والصورة الحقيقية

كذلك تبين كذب الادعاءات التى ادعها كتاب اليهود ومؤلفوهم باتهامه فى شجاعته ، فان هذه الشجاعة الفائقة يدل عليها عديد من الواقع والأحداث .

منها موقفه حيال محاولة اغتياله بعد انفجار القنبلة ، واستطمار الناس فقد واجه السلطان الحادث فى شجاعة أدهشت رجال السلك السياسى الأجانب وفي حفل الاستقبال فى قصر ضلما بعشة

عام ١٩٠٤ حيث كان يستقبل ضيوفاً من أنحاء العالم ، وقع زلزال شديد فتحطم النوافذ واتسعت الأرض وتهافت الشرفات من السقوف ، وقفز الوزراء والباشوات من النوافذ وقد استولى الذعر على كل الموجودين ما عدا عبد الحميد الذي ظل واقفاً متتصباً رابط العجاش وسط الغرفة المتأرجحة .

وقد روت ذلك الدكتورة الماولتن صاحبة كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) .

وهناك الاتهامات التي تتصل بالرقابة فقد قيل أن للسلطان ألفاً ومائتي جاسوساً ، وأنهم مبثوثون بين أهالي الآستانة ، وقد تبين أن هذه الصورة مبالغ فيها ، وقال جواد رفت : إن السبب الذي جعل السلطان قد نظم إدارته على نحو معين ، ووسع دائرة استخباراته ، هو علمه من تقارير الصهيونية بالعمل على التخلص منه والقضاء عليه .

كذلك فقد ثبت بطلان دعوى تعصبه وقد اتخذ كبير أطبائه من المسيحيين ، وجعل وزير ماليته دولتلو أغويان المسيحي الأرمني ، وعهد بكثير من مهام سلطته إلى غير المسلمين .

* * *

قصة باطلة :

وتتردد كثيراً قصة مذابح الأرمن ، ومسؤولية السلطان عبد الحميد عنها ، وقد تبين براءة عبد الحميد من مسؤولية هذه المذابح ، وأن الغوغاء هم الذين تسببو فيها ، والأرمن هم الذين بدأوا باحتلال مبني البنك العثماني وقتل بعض موظفيه ، رداً على

القمع الذى جوبهت به ثورتهم والتى ثبت أن الروس والإنجليز دفعوهم إليها دفعا ، وليس بسبب سوء المعاملة كما قد يتواهم البعض ، وقد استغلوا روح التسامح لاحراج الدولة وكسب مزيد من الامتيازات ، شهد بهذا دجوفارا أحد كبار ساسة رومانيا ومؤرخيها .

يقول : أن من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى اعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين لدعم المسيحية التى كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تثبت دعایتها القومية وتماسك وتنھض وتسير سيرا قاصدا فى طريق الانفصال عن السلطة العثمانية (حاضر العالم الاسلامى) .

* * *

موت الأفغاني :

كذلك فقد كذبت وقائع التاريخ الصحيحة ما أشيع عن تهمة دس السم للأفغاني ، والصحيح أن جمال الدين مات بالسرطان ، بعد أن مرض شهورا طويلا ، ولو دسوا له السم لمات بسرعة .

وقد وصف جرجى زيدان فى الهلال (اذار ١٨٩٧) كيف توفى : قال : كان قد أصيب بداء السرطان فى فكه السفلى منذ بضعة أشهر ، فقاىى آلاما مبرحة وأجريت له عمليات كثيرة حتى استؤصل الفك السفلى كله أو أكثره ، فامتد الداء إلى العنق وأوغل فى الفم وعقد اللسان وضاعف الآلام ، فاشتد المرض ولبث الناس ينتظرون وقوع الأجل ، والحضرمة السلطانية تواصل الالتفات

اليه ، بالاتفاق من الجيب الهمایونى الخاص ، على أن ذلك لم يدفع مقدورا ولا محا مسطورا . . . الخ .

ولكن ليس هذا العرض الذى يكشف وجه الحقيقة فى أمر هذا السلطان المسلم الذى شوه تاريخه طويلا ، لا يمنع من أن يكون له وقد ولى الحكم سنوات طويلة بعض الأخطاء وقد أشير إلى بعض هذا فى :

- ١ - تعاونه مع المانيا مما جر عليه خصومة انجلترا وفرنسا .
- ٢ - تردده فى أن يتخذ اللغة العربية لغة الدولة العثمانية .
- ٣ - الاتجاه الى الطرق الصوفية وليس الى التيار الاسلامى الأصيل .
- ٤ - اهتم التدريب العسكري واهتمام الأسطول .

* * *

حاشية :

وقد صدرت فى السنوات الأخيرة بحوث كثيرة تحمل طابع الاعتدال والانصاف واحتفت تلك الروح الظالمة القاسية التى لم تكن قائمة على الحقيقة التاريخية ، وكانت تصدر عن الأهواء والتعصب والحققد ، بل ان بعض الكتاب الذين تورطوا فى كتاباتهم الأولى قد عادوا مرة أخرى الى الانصاف .

من هؤلاء الاستاذ محمد جميل بيهى ، وكذلك بعض أساتذة الجامعة الأمريكية أمثال الدكتور زين زين .

كذلك فقد كان نشر مذكرات السلطان عبد الحميد عاملاً هاماً في الكشف عن الجوانب التي كانت غامضة.

ومن أبرز هذه الدراسات تلك الأطروحة التي قدمها اللبناني حسان حلاق إلى جامعة بيروت العربية تحت عنوان (موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩) .

كذلك فقد كان للتعليقات التي قدمها أحمد الراشد على مذكرات السلطان التي ترجمها الاستاذ محمد حرب عبد الحميد ، بالإضافة إلى مقالاته المتصلة عن الدولة العثمانية تصحيحاً لمواضيعه ، كل هذا كان له أثره العميق في إعادة النظر في هذه الصفحة التي أحاطها ضباب كثير .

وقد تحدث الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى عن ضرورة فتح ملف الدولة العثمانية من جديد ، وجرت في الملتقى الإسلامي الجزائري سنوات ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ أبحاث واسعة في هذا الصدد ، صحيحت كثيرة من الأخطاء والشبهات حول الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، وصدرت لكاتب هذه السطور دراسة واسعة ضمنها كتابه (تاريخ الإسلام : مقدمات العلوم والمناهج) بقى أن نقدم حلقة ثالثة عن المرحلة الثالثة للسلطان عبد الحميد الاتحاديون ومصطفى كمال أتاتورك ، فإلى اللقاء .

الباب الخامس

كمال أتاتورك واسقاط الخلافة

حاولت أجهزة الدعاية الغربية والصهيونية اعطاء « مصطفى كمال » أتاتورك حجماً أكبر بكثير من حجمه الطبيعي ، وذلك عن طريق عشرات المؤلفات التي طبعت ووزعت في مختلف أنحاء العالم ، بتضخيم حجم هذا العمل التغريبي التخريبي الخطير ، الذي قام به .

ولقد حظيت اللغة العربية بعدد من هذه الكتب ، منها كتاب « كمال أتاتورك » الذي كتبه « محمد محمد توفيق » واعتمد على ٥٣ مرجعًا إنجليزياً وفرنسيًا ، وما زال يعد في نظر التغريبيين مرجعاً أساسياً في تقديم هذا النموذج الأول الذي هو بمثابة المثل البكر لتجربة التغريب في العالم الإسلامي ، والتي فشل تطبيقها في البلاد العربية وسقطت أخيراً في إيران .

ولا يمكن فهم حقيقة كمال أتاتورك إلا بالعودة إلى السلطان عبد الحميد ومحاولة اسقاطه ، التي تمت عام ١٩٠٩ والتي تولى الاتحاديون بعدها زمام الحكم إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، كمرحلة اعداد للدور الذي قام به كمال أتاتورك من بعد .

بداية مريبة :

وما ان أسقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الامر في الدولة العثمانية الى شىء خطير ، فقد فتحت ابواب لكل الاقطارات والدعوات المعاشرة للوحدة الاسلامية والخلافة الاسلامية والاسلام نفسه ، وأتيحت الفرصة لكل الغلاة وخصوم العرب والاسلام ، فى أن يذيعوا كل ما من شأنه أن يحقق للاستعمار الغربى واليهودية العالمية مطامعها وأهدافها ، وخرجت جماعات خريجى الارساليات التبشيرية والمحافل الماسونية ، لتسسيطر على الرأي العام عن طريق الصحافة ، وتولت الحكم وزارة في الدولة العثمانية فيها ثلاثة وزراء من اليهود .

ثم انفتح الطريق الى فلسطين وأتيح لسماسرة بيع الاراضى العمل فى حرية كاملة ، ونشط اليهود والدونمة والماسون من ورائهم للعمل .

وأسفرت عن نفسها :

وبدأت الحركة الطورانية تشق طريقها فى تمزيق وحدة العرب والاسلام واندفعت جمعية الاتحاد والترقى الى ترتيرك العناصر الداخلية ضمن الامبراطورية . وكان التركيز على ترتيرك العرب شديدا .

وكانت أولى خطوات الاتحاديين فى الحكم : بناء منهج سياسى فكرى للدولة العثمانية ، مستمد من النظرية الغربية العلمانية ، جريا وراء الخطة التى رسمتها الماسونية للثورة الفرنسية ، والغاء المفاهيم الاسلامية واحلال مفاهيم غربية خالصة

بدلا منها ، وسارع الاتحاديون بإصدار تصريحات تقول بعزل النظام السياسي القائم ، وقال أحدهم : أنه لا محل للجامعة الإسلامية في برنامج تركيا الفتية .

وقد جرت مهمة الاتحاديين في هذه الفترة على اعداد الدولة العثمانية لحركة التغريب في عديد من الجهات :

١ - استسلامهم لبريطانيا استسلاما كاملا .

٢ - تسليم طرابلس الغرب لايطاليا .

٣ - فتح الطريق أمام اليهود إلى فلسطين .

٤ - وضع العقبات أمام وحدة العرب والترك بتعليق العرب على المشانق في الشام .

٥ - محاولة ترسيخ الاعراق البشرية الداخلة في نطاق امبراطوريتهم وبخاصة العرب .

٦ - اعلان فكرة الطورانية واعلاء الجنس التركي على العالم كله .

وهكذا فان كل ما حدث في فترة السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الاولى انما كان تمهدًا لما جاء بعد ذلك . في تركيا أو مصر أو لبنان ، وذلك في ضوء التحول الخطير الناتج عن اسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها ، وقد تحقق ذلك بالفعل ، نتيجة لدخول الاتحاديين الحرب العالمية في صف الالمان . فكانت هزيمة الالمان في الحرب هزيمة لهم مما أدى الى السيطرة على تركيا واذالها ، وفرض نفوذ فكري سياسى غربي عليها ، حتى

ينتهى هذا الوجود الاسلامي المرتبط بالخلافة والوحدة الاسلامية ، وحتى لا تكون تركيا مرة أخرى منطلقا للإسلام الى أوروبا ، أو مصدرا للخطر ، أو جرثومة لتجتمع اسلامي .

نعم كانت فترة السنوات العشر لاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك ، وتمهيدا للمخطط التغريبي العنيف ، الذي نفذه مصطفى كمال أتاتورك بقوة القانون .

* * *

مصطفى كمال والاهداف :

وقد كان مصطفى واحدا من الاتحاديين بين زملائه طلعت وجال وجاويد ، ولكنه لم يلمع تحت الاشواط في هذه الفترة فقد استبقاء التخطيط الدقيق ليحمل لواء المرحلة التالية . وليصبح بعد الحرب امتدادا لهم . ونقطة تجمع لهذه القوى ، لتشكل مرة أخرى على نحو آخر ، بعد أن حفقت أكبر أهدافها وهي :

- ١ - اسقاط الدولة العثمانية وتمزيق وحدة العرب والترك التي هي مظهر وحدة العروبة والاسلام . فقد كان أتاتورك واحدا من رجال جماعة سالونيك ومحابيها الماسونية ، ومن أبرز رجال الاتحاد والترقي ، مؤمنا بتلك المبادئ والمخططات التي نفذت فلم يكن حربا عليها وإن أعلن اختلافه معها - في ظاهر الامر - ولكنه كان يحقق مرحلة جديدة ، فيها اعادة النظر ازاء بعض الوسائل مع الاحتفاظ بالغاية الكبرى ، والوصول اليها بأساليب أشد حكاماً .

ولم تكن معارضته لفكرة الدعوة الطورانية الا من هذا القبيل ، واذا كان الاتحاديون قد حطموا الدولة العثمانية ، وفرقوا رابطة العروبة والاسلام . فان أتاتورك قد حقق عملا واحدا فى التاريخ الاسلامى أشد قسوة وخطرا من كل عمل ، وهو « الغاء الخلافة الاسلامية » وتحويل تركيا من دولة اسلامية تحمل لواء الجامعة الاسلامية والخلافة وقيادة الامم الاسلامية ، الى دولة غربية خالصة تكتب من الشمال وتطبق القانون السويسرى المسيحي .

* * *

بروتوكول لوزان :

وأبرز هذه الأعمال اقرار تلك الوثيقة الخطيرة : بروتوكول معايدة لوزان المعقوذ بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣ المعروفة بشروط كروزون الأربعه وهي :

- ١ - قطع كل صلة بالاسلام .
- ٢ - الغاء الخلافة .
- ٣ - اخراج أنصار الخلافة والاسلام من البلاد .
- ٤ - اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

ويؤكد أرنست ا . رأفورو . وصديقه آرنست باك ، وبمراجعة كتاب أرمسترونج « الذنب الاغبر » عن حياة مصطفى

كمال : أنه كان ماسونيًا وأن المحفل الإيطالي الذي ساعد الاتحاديين عام ١٩٠٨ على نجاح حركتهم كان معاونا له في نجاح حركته . ولعله أحس بعد أن نجحت حركته أنه لا حاجة إلى الجمعيات الماسونية في بلاده ، فألغاها بعد أن تحققت كل أهدافها .

من هو مصطفى كمال :

ولا شك أن العنف الذي واجه به مصطفى كمال مؤسسات الإسلام ، وما قام به من دحر لنفوذه في تركيا ، يكشف بوضوح عن أنه كان من أخلص رجال المحافل الماسونية ، بل يصل إلى أبعد من ذلك عندما يؤكّد ما ردده كثير من الباحثين من : إن مصطفى كمال نفسه من أصل يهودي من الدونمة في سالونيك ، وأنه كان يتخفى بالمكر والخدع في معاركه حتى استطاع كسب قلوب المسلمين ، فأرسلوا له من التبرعات والأموال الشيء الكثير حتى إذا تمكّن من امتلاك أزمة الأمور سحق أنصار الإسلام سحقا .

والواضح من دراسة تاريخ حياة مصطفى كمال أمور عده :

أولا : انه لم يكن هو قائد معركة التحرير^(١) ضد القوات الأوروبيّة واليونانية وإنما هو الذي سيطر على هذه القوات من بعد وسحب أسماء الابطال الذين بدأوا هذه المعارك . وكان لهم دور

(١) في معركة الحفاظ على القسم الأوروبي من تركيا خلال الحرب مع اليونان ، كان يستغل العاطفة الإسلامية مما جعل المسلمين الدراوיש - الفدائيون المسلمين يؤمنون له ويساعدونه ، حتى إذا بلغ غايته قلب لهم ظهر المجن وانقلب على القوى الإسلامية .

كبير في تحقيق النصر وان الفضل الاول كان للقائد قره بکير . وغيره .

ثانيا : ان أوروبا قد سلمت لمصطفى كمال بزعامة تركيا وانسحبت أمامه ، بعد أن وقع على وثيقة رسمية دولية في مؤتمر الصلح ، قرر فيها ازالة الاسلام والخلافة وخروج زعماء المسلمين ، والحكم بالقوانين الغربية والغاء اللغة العربية بعد ان اطمأنت الى أن تركيا - عنصر المخافة - قد انتهت .

ثالثا : ان هذه البطولة التي حيكت لها أثوابها ، ووضعت في هذا الطابع من الروعة والبهاء ، انما كانت خدعة الفوڈ الاستعماري لتأكيد وجوده وسلطانه ، ومنحه القوة على تدمير كل المؤسسات الاسلامية ، حتى لا يبقى منها شيء يخيف أوروبا أو يزعج اليهودية العالمية ، التي كانت تطمع منذ وقت بعيد الى أحد أمرين :

القضاء على الدولة العثمانية واتخاذ الغاء الخلافة الاسلامية طريقا للوصول الى فلسطين .

وظهر على حقيقته :

ولقد دفع مصطفى كمال تركيا دفعا قويا الى العلمانية ، وألغى القوانين الاسلامية واضطهد المسلمين والاسلام أبشع اضطهاد ، وقتل العشرات وعلق جثثهم على أعمواد الشجر ، وأغلق المساجد ومنع الاذان والصلوة باللغة العربية . وأعاد مسجد أيا صوفيا كنيسة ومتحفا . واستبدل بالشريعة الاسلامية قانونا وضعيا ،

واتخذ الحروف اللاتينية بدلاً من العربية في كتابة الأبجدية التركية^(١) وألغى تدريس الاسلام في المدارس والجامعات ودعا الى قومية طورانية عرفية متصلة الأواصر بالوثنيين السابقين للإسلام .

ولقد كان منفذًا أمينا للمخطط الذي رسمه الاستعمار واليهودية العالمية وهو ازالة الخلافة ، وفصل تركيا عن العالم الاسلامي والامة العربية ، وبذلك حقق مصطفى كمال - في العالم الاسلامي وفي مواجهة العروبة - أخطر حركة استغراب ، وفرضها فرضا على الامة التركية ، ولم يتحققها تدريجيا ، أو على نحو التقبيل والتطور والمرونة ، فقد كان مدفوعا من القوى الاجنبية الى تنفيذ ذلك في أقصى سرعة وأبعد مدى ، واقامة هذا النظام على أساس السلطة الحاكمة والقوانين والارهاب الدموي ، وذلك حتى لا توجد ثغرة من بعده للتفتح على الاسلام من جديد أو الترابط بين العرب والترك ، ولقد جمع الاتحاديون الشمل المشتت بعد الحرب العالمية خلف مصطفى كمال فتسموا بالقوى الكمالية ولا فارق بين الدعوة الاتحادية والدعوة الكمالية في أبرز مخططاتها وهو اعلاء العنصرية التركية وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وتنفيذ نظام سياسي واجتماعي غربي لا ديني منفصل عن الاسلام والشريعة والقيم والمعتقدات الاسلامية التي عرفتها الدولة العثمانية أكثر من أربعمائة عام وقبل قيام الدولة العثمانية كان الاتراك مسلمين منذ عهد العباسيين .

* * *

(١) كتبت الأبجدية التركية بالحروف العربية منذ القرن الثاني الهجري وبعد أحد عشر قرنا اجبر كمال الاتراك على استعمال الحروف اللاتينية .

آراء مؤرخي الغرب :

ولقد كان انتماء تركيا الى الغرب سبة في تاريخها . فلم تسلم من قلم مؤرخ أو فيلسوف ، مما استطاعت تركيا ان تعطي الحضارة الغربية شيئاً ما ، بعد أن انتمت اليها كما اعطتها شعوبها . الا أنها كانت ولا تزال ذيلاً لها .

وقد أشار أرنولد توينبي الى ذلك صراحة في موسوعته وقال : ان تركيا حين تغربت لم تقدم شيئاً الى الغرب او جديداً الى الحضارة وعاشت عالة على القوانين والمنظمات الغربية .

وكما قال عبد الله التل : كان تخلى تركيا عن الاسلام ثمناً لتأييد دول الحلفاء لها في حركتها التي قادها مصطفى كمال . ولقد كان الوسيط الذي أشرف على اتفاق الحلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام « حاييم ناحوم » الذي كان رئيساً لليهود في تركيا قبل انتقاله إلى مصر . وهو الوسيط القوي الذي أوفده مصطفى كمال إلى دول الغرب في مؤتمر لوزان فحقق لتركيا ما أراد الغرب .

دراسات جادة :

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة دراسات جادة تكشف حقيقة « كمال أتاتورك » منها كتاب الدكتور رضا نور ، حيث كشف جرائم أتاتورك ومخازيه وخياناته في أكثر من الفين من الصفحات تحت عنوان « حياتي وذكرياتي » كما صدر كتاب « الرجل الصنم » لأحد الضباط المقربين من أتاتورك .

وقد هدمت هذه المؤلفات بناء الأكذوبة الاسطورية التي

خدعت الأتراك والمسلمين في بعض البلاد إلى حين وألقت
الاضواء الحقيقة على حياة المغامر الخطير ، بل لقد تحدثت في
جرأة شديدة عن مولده وظروف حياته الأولى .

بل ان هذه الظروف قد أوردتها كتب ناصرت أتاتورك وأهمها
كتاب « الذنب الأغبر » الذي يقول بالنص :

كان بفطرته ثائرا لا يحترم رئيسا أو إنسانا ، أو وضع من
الأوضاع ولا يقدس شيئا على الإطلاق ، وانه كان يشرب ويلهو
كل ليلة حتى مطلع الفجر في المقاهي وأوكار الغرام . وقد مارس
جميع الرذائل وجرب كل الموبقات ، وانغمس فيها حتى أذنيه ثم
دفع الثمن مرضيا جنسيا وصححة منها .

ويقول أرمسترونج أيضاً : أنه كان ولوعا بالاحاديث الخليعة
والافراط في الشراب والمعامرات الماجنة والليالي الحمراء في رفقة
النساء .

* * *

عنف وسلطـ

وهناك جوانب أخرى يعف القلم عن ذكرها أو ترديدها .

وعندما نستعرض حياة كمال أتاتورك منذ تولى السلطة حتى
وفاته ١٩٣٨ ، نجد صورة عاصفة من العنف والظلم والتسلط البالغ
المدى في سبيل تثبيت دعائم هذا النظام الوافد وأية ذلك الولاء
المزدوج لبريطانيا وروسيا الشيوعية في آن .

وأبرز هذه المواقف صلته بالإنجليز وما تحمله الوثائق مشيرة

الى عبارة : قيامه ببيع الوطن الى الانجليز . ومن ذلك موقفه أبان المرض ، عندما استدعي السفير البريطاني فى تركيا وطلب اليه أن يتولى منصب رئيس جمهورية تركيا وفزع بريطانيا لذلك .

ولقد استطاع أن يحقق للصهيونية العالمية خطتها فى السيطرة بإلغاء الخلافة والوجهة الاسلامية والحرروف العربية والشريعة والمواريث والأوقاف والتعليم الدينى .

* * *

اسقاط الخلافة الاسلامية :

وإذا كانت تركيا تحاول أن تعود اليوم الى طابعها الاسلامى الاصليل فان محاذير كثيرة تعمل لتصدحها عن تحقيق هذه الغاية ولكن الله غالب على أمره^(١) ولكن التجربة كلها ثبتت أن مجاوزة الفطرة ومحاربة الدين هي محاولة باطلة لا يمكن ان تستمر ولا بد ان يحط منها الزمن لمجافاتها لسن الامم والحضارات والتاريخ .

وإذا أردنا أن نتحدث عن كمال أتاتورك فى كلمة ، قلنا : إن تاريخه قد ارتبط بأخطر حدث فى تاريخ الإسلام ، وهو الغاء الخلافة الاسلامية بعد أن ظلت قائمة أربعة عشر قرنا ، فقد كان الغاء الخلافة الاسلامية بعد تدمير الدولة العثمانية أكبر مركز تجمع لlama الاسلامية وهو آخر المراحل التى تطلع اليها الاستعمار

(١) من الواضح أن الانقلاب العسكرى الجديد فى الحكم التركى ، موجه أصلا ضد العودة الاسلامية .

واليهودية العالمية من أجل تمزيق وحدة الاسلام والعروبة والقضاء على آخر صرح جامع للعرب والترك يحمل لواء الجامعة الاسلامية ويتنادى بال المسلمين في كل بقاع الارض .

لقد كان اسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الاحداث في العالم كله وسيظل من الاعمال الكبرى ضد الاسلام وسيحمل لاسم مصطفى كمال أكبر التبعات في حكم التاريخ . فقد فتح الباب واسعاً أمام صراع الاقطليميات والقوميات التي تتحرك في فراغ دون أن ترتبط بدائرة أساسية هي دائرة الفكر الاسلامي أو الوحدة الاسلامية للجامعة في مجال الجغرافيا أو في مجال الفكر .

غير أن الغاء الخلافة الاسلامية لم يحقق ما توقعه الاستعمار واليهودية العالمية من تمزيق الاسلام أو اضطراب المسلمين والعرب ، الذين أغرقوا على التو في آتون الاجناس والعصبيات والعنصرية ، بقصد تعزيز عوامل الخلاف ودعمها ، والحلولة دون قيام وحدة فكرية أو اجتماعية بينهم لقد ركزت هذه الدعوات التغريبية على الازدراء بالخلافة العثمانية والجامعة الاسلامية . وعلى اثارة الصراع بين الاسلام والعروبة وبين القومية والوطنية وبين الاقطليمية والقومية وبين العناصر المختلفة وبين الاديان والمذاهب ، وذلك كله لاذابة كل هدف سليم واضح تطرحه حركة اليقظة الاسلامية في الطريق الصحيح الى معرفة الحقيقة ، والى اتخاذ الاسلوب الاصيل لمواجهة الاخطر ونتيجة للضعف السياسي الذي كان يمر بالعالم الاسلامي .

فقد عجز قادة المسلمين عن اعادة بناء الخلافة الاسلامية مرة أخرى بعد ان أسقطها مصطفى كمال ، وان ظلت عنصراً أساسياً

في مناهج الدعوات الإسلامية وخطة واضحة في برنامج حركة
اليقظة العربية الإسلامية . وما زال المسلمون يبحثون عن صيغة
جديدة تحمل لواء الوحدة ، بديلاً من الخلافة أو مقدمة لها . ولقد
كانت مكة وجاءتها في أيام الحج ، وكان الازهر ، من القوى التي
ساندت حركة اليقظة الإسلامية بعد سقوط الخلافة ، وكان انتعاش
السلفية الجديدة في الجزيرة العربية واليقظة الإسلامية في مصر
وباكستان وغيرها ، من علامات التعريض السريع ثم جاءت بعد
ذلك مؤتمرات التضامن الإسلامي وما زالت تخطو خطوات بطئه
ولكنها ثابتة .

* * *

آثار الغاء الخلافة :

وقد صور الدكتور عبد الوهاب عزام الآثار التي ترتب على
الغاء الخلافة في العالم الإسلامي فقال : إن عمل الكماليين من
بعد ، دل على أن الغاء الخلافة لم يكن نزوة عابرة ، بل كان
الحلقة الأولى في سلسلة مصنوعة والخطوة الأولى من خطة
موضوعة : خطوة أملأها عليهم الروس والإنجليز وأوروبا .

لقد كان الغاء الخلافة من هذه الخطوب المكفحة لحل رباط
حرمة من التعصب في ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ
مبلغ ، وبلغت بأعدائهم أبعد غاية . ولا ينكر هذا إلا جاهل بطائع
الإثم . وأحسب أن الإنجلiz كان يهون عليهم أن يذلوا ملايين
الجنسيات ليبلغوا الغاية التي بلغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا
كدر .

* * *

أمر مقرر ؟؟

وهناك من الدلائل ما يؤكّد أن الغاء الخلافة الاسلامية كان أمراً مقرراً منذ اليوم الأول للانقلاب العثماني ، الذي قام بـاسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ، ولكنه تقدّم على مراحل واتخذت اجراءاته واحدة بعد أخرى ، حتى تم تفريغه على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ بعد أن أُسقط الخلافة الزمنية ، وأقام بدلاً منها خلافة منفصلة عن السلطنة توطئة للاجهاز عليها ، جملة .

وسيظل تاريخ مصطفى كمال أتابورك مرتبطة بـاسقاط الخلافة الاسلامية الى أن تعود بإذن الله تبارك وتعالى خلال القرن الخامس عشر .

الباب السادس

عودة الخلافة الإسلامية

عندما أُسقطت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، كان مخططا خطيراً قوامه النفوذ الاجنبي والصهيونية والشيعية الذي كان قد بدأ في إعداد هذا العمل سراً منذ أكثر من مائة عام ، من خلال جماعة الدونمة . (اليهود الذين هاجروا من الأندلس عام ١٤٩٢ وأقاموا في سالونيك ودخلوا في الإسلام تقية) التي عملت بالاشراك مع جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية ، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار «القضاء على دولة الرجل المريض» ، خاصة بعد أن حمل (السلطان عبد الحميد) لواء الدعوة إلى «الجامعة الإسلامية» بمعنى أن ينضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية جميع المسلمين في العالم - وليس فقط العرب والترك - .

ومن هنا كانت خطواته إلى القضاء على الفرقة التي عمقها الاستعمار بين الترك والفرس ، وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية الإسلامية ، أمراً بالغ الخطورة ، جوبه في الغرب من القوى الثلاث بمؤامرات ضخمة ،

امتدت قرنا كاملا ، على النحو الذى صوره بها وزير ايطالى منصف : تحت عنوان « مائة مؤامرة على الدولة العثمانية » .

ومن هنا يتبيّن أن (الخلافة الاسلامية) لم تسقط بجرة قلم عام ١٩٢٤ عندما ألغها مصطفى كمال أتاتورك ، وإنما يمكن أن يقال أن هذه كانت آخر خطوة في مؤامرة ضخمة واسعة النطاق امتدت سنوات طويلة وشاركت فيها قوى كثيرة ذات مصلحة في تمزيق العالم الاسلامي ، مثل انجلترا وفرنسا ، ومنها ما كان يهدف إلى الوصول إلى فلسطين وقلب القدس كالصهيونية العالمية ، وليس أدل على ذلك من مساعدة الشيوعية الروسية في تلك المغونة الضخمة التي قدمتها لحكام تركيا بعد اسقاط الخلافة .

ولنعلم أن المحاولات التي جرت عام ١٩٠٨ لإسقاط السلطان عبد الحميد كانت هي المقدمات الحقيقة لإلغاء الخلافة ، فقد كانت فكرة عبد الحميد كما ذكرنا أن يمتد نفوذ الخلافة فيشمل عالم الاسلام كله ولا يتوقف عند حدود الدولة العثمانية ، وقد أخذ عبد الحميد بهذه الفكرة كخطوة حاسمة لمواجهة محاولات الغرب .

قوة تواجه زحف الطامعين :

ومنذ تولي عبد الحميد ، ورأى انتفاض البلقان على الدولة ، ركز على دولة اسلامية جامعة تحمل لواء الوحدة الاسلامية ، وتضم مختلف المسلمين ، الذين هم خارج نطاقها السياسي اليها ، باعتبارها قوة تواجه الزحف الغربي الطامع الى تمزيق اديم عالم

الاسلام والسيطرة عليه . ولما نجحت الخطة وكادت تؤتى أكلها ، والتقي شيعة ايران مع سنة تركيا لأول مرة ، بعد أن حفر الاستعمار بينهما خندقا عميقا منذ ثلاثة قرون أو تزيد ، عجل الاستعمار والصهيونية بالقضاء على عبد الحميد خاصة ، لموقفه الحاسم في الحيلولة دون وصول اليهود الى فلسطين .

والمعروف أنه لما ظهرت حركة الاتحاد والترقي داعية لغريب تركيا ، احتضنتها المحافل الماسونية ، وحولتها من خطة اصلاح عثمانية داخل الدولة الاسلامية الكبرى الى خطة تغريبية عنصرية ، تحمل لواء (الطورانية) وتدعى الى تerrick العرب ودفعهم الى التماس مفهوم الماسونية في الثورة الفرنسية والاستجابة له .

وبذلك كانوا جمعا غريبي الفكر ، وكانت مفاهيم القوميات والاقليميات والطورانية والعنصرية ، قد سيطرت على فكرهم واستهدفت الانفصال عن المفهوم الاسلامي والكيان الاسلامي . وقد ظلت الفكرة في حضانة الدونمة والماسونية منذ بدأ ، حتى استطاعت أن تصرع الوحدة الاسلامية الجامحة بانتزاع عبد الحميد من مكان القيادة - باعتباره صاحب مبدأ الوحدة الاسلامية - .

ثم جاء الاتحاديون فأقاموا عهداً أسود في تركيا منذ ١٩٠٨ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ثم لبسوا ثوباً جديداً اسموه (البكمالية) وهو امتداد لهم أشد خطراً وأعمق أثراً ، جاء بعد أن كسبوا ما كسبوه من نصر باسم الاسلام ، ثم استداروا عليه استدارة كاملة بعد أن كان هو الورقة التي حققوا بها النصر .

* * *

وجه كالع صريح :

وقد وردت في الموثائق التي كشف أمرها أخيراً موافقتهم على خلع الإسلام واللغة العربية والمحاكم الشرعية وملابس الإسلام وشرعيته ثمناً لتخليصهم من الاحتلال البريطاني واليوناني، وكان اعلان تركياً دولة علمانية كفيلة بأن يحقق لها رضاء الغرب وتسلیمه وتحريره.

فقد انفصلت تركيا عن الأمة الإسلامية واندمجت كلياً في الغرب العلماني، وسرعان ما حققت الامل الذي طالما طاف بأحلام الغرب - روسية وإنجليزية وفرنسية ويهودية - وهو أن يقضي مسلم بيده على خلافة الإسلام.

ولكن أتاتورك لم يكن مسلماً في حقيقته وإنما كان من الدونمة - التي تخفت تحت صورة الإسلام لتحقيق كل ما استطاعت أن تتحقق في تركيا، وكان همه الأكبر «اسقاط الخلافة» وفي سنوات قليلة من ١٩١٨ - ١٩٢٤ تحولت تركيا - دولة الخلافة العثمانية وتابع العالم الإسلامي - إلى دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم - تراث الإسلام - وتقاوم رجاله ودعاته ومؤسساته.

وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين اليهود الدونمة والاتحاديين الكماليين، والقوى الاستعمارية العربية وروسيا.

* * *

وما اسقطت الخلافة بأسلوب الاقناع والتغيير النفسي والفكري ، ولكن بأسلوب من العنف والقتل والاستبداد والظلم ، الذى قامت به (ثلاثة) أعدت لها وخططت لذلك فى مراحلتين طويتين منذ ١٩٠٩ الى ١٩١٨ م باسم الاتحاديين ، ومن بعدها الى عام ١٩٢٤ باسم الكماليين ، وهما - فى الحقيقة - شىء واحد استطاع فى أول الامر أن يفتح الباب للصهيونية العالمية الى فلسطين ، بعد أن استعصى ذلك عليها طويلا أيام السلطان عبد الحميد ، وأسلمت طرابلس الغرب للياطاليين ، ودفعت الدولة العثمانية الى أن تكون وقودا فى الحرب العظمى دون داع ، حتى تنفصل عنها الشام والعراق وحتى تسلم فلسطين لليهود .

وحاولت الصحف الموالية للتغريب تصوير المسألة بصورة كاذبة مضللة وأن يجعل ذلك الاتجاه عنوانا على التقدم ، حتى خشى شيخ الاسلام - الذى أخرجوه وأقام فى مصر آنذاك - من هذا التحول المحاط بهالة كاذبة من التكريم حين قال سماحة الشيخ مصطفى صبرى : اننى أخاف أن تسعد بلاد تركيا وترقى بهذه الادارة الحديثة اللادينية رقياً دنيوياً - وإن كان ذلك فى غاية البعد والاستحالة - فيقتتن بها المسلمين الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهي توغل فى سبيل الأفلاس والاندراس .

وانما نقول للشيخ من وراء القبر : اطمئن فإن تركيا لم تسعد وإن التجربة لم تحقق أى نجاح ، ولم تتقدم تركيا عن الدول الأخرى بل لعلها ما زالت تقاسى من جرائرها وإن جيلاً جديداً نشأ على الاسلام ويعجاد فى سبيله .

حملة ظالمة :

ان أكبر ما غذيت به حملة اسقاط الخلافة كانت تلك التصورات الباطلة التي نسبت الى السلطان عبد الحميد الظلم والاستبداد ، بينما كان كل ما يحاول عبد الحميد قمعه والгинوله دونه هو سقوط الدولة العثمانية في براثن القوى الصهيونية والاستعمارية ، التي كانت تريد تهاجمها وتقسيمها ، وتسليم فلسطين لليهود ومن أجل ذلك استحق الخلع واستحقت الخلافة الازالة ، بأيدي من تسموا بأسماء المسلمين ، وفي مقدمتهم مصطفى كمال الذي كان يدعى أنه مسلم ، ويدعو المسلمين الى الدعاء له بالنصر ، حتى اذا ما وجد فرصته ضرب ضربته وسط دهشة العالم الاسلامي كله وعجبه .

وفي الحقيقة ان الخلافة لم تكن مصدر انحطاط تركيا ولا العالم الاسلامي ، ولم يكن أسلوب تعديلها هو ازالتها أو فصل السلطة عن الخلافة كما فعلوا أولاً ليخدعوا الناس يومئذ ، ان كان ذلك مقدمة للقضاء النهائي عليها .

وقد كانت هناك مشروعات كثيرة للاصلاح لوحظت النيات وحسن الاتجاه الى الابقاء على وحدة العالم الاسلامي وقيام خلافته .

واما كانت هناك قياسات لما وصف به عبد الحميد من تسلط واستبداد فأين منه ما قام به الاتحاديون والكماليون .. الذين باعوا آخرتهم بدنياهم .. ??? ، وهو ما لم يفعله الخلفاء قط ، وبينما وقف الاعزل عبد الحميد أمام قوى الصهيونية العالمية ، وهي تغريه

بالملايين وهى تعرف مؤامراتها وتقودها ، وقد وقف صامدا لا
يلين .

تمزيق الوحدة الاسلامية :

ولقد كان من وراء اسقاط الخلافة الاسلامية أهداف كثيرة ،
كان أكبرها تمزيق هذا الشمل الذى جمعته الوحدة الاسلامية بين
مسلمى العالم ، وتفريق هذا الجمع الذى ربطته الدولة العثمانية
ليسهل توزيعه واحتواه ، وتقديم فلسطين والقدس لقمة سائغة
للهصيونية التى كانت وراء الربا العالمى منذ عصور بعيدة ، عاملة
على تقريب المسافات الى تحقيق الغاية ، من وراء الاستعمار
الغربي .

ومن أهدافها محاولة حجب حقيقة الاسلام الجامحة بين
الدين والدولة والقائمة على أساس أن الاسلام « دين ونظام
مجتمع » واثارة الشبهة حوله بتصویره دينا لاهوتيا - على النحو الذى
صوره به الكماليون فى تركيا وعلى عبد الرزاق وجماعة اللادينيين
فى البلاد العربية .

خيبة الأمل فى تمزيق المسلمين :

وإذا كان الهدف الاول قد تحقق لانه داخل فى نطاق مرحلة
الضعف التى أرخت قبضة المسلمين عن حقوقهم وممتلكاتهم
وسلطاتهم ، فان الهدف الثانى لم يتحقق بعد ، لأن المسلمين
سرعان ما تnadوا الى الوحدة فى محاولة لاحتواء الخطر ، وذلك
بالرغم مما طرحة التغريبيون من مفهوم غير أصيل عن أن الاسلام
دين عبادى ، وان الخلافة والحكم لم تكن من أسس الاسلام .

بل ان عددا كبيرا من المستشرين الغربيين اعترف بأن الاسلام ليس دينا فحسب بل هو نظام سياسي واجتماعي أيضا .

يقول فيتزجرالد فى كتابه قانون المسلمين (١) : على الرغم من أنه قد ظهر فى العهد الاخير ، بعض أفراد من المسلمين من يصفون أنفسهم أنهم عصريون ، يحاولون ان يفصلوا بين الناحيتين ، فان صرح الفكر الاسلامى كله قد بنى على أساس أن الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

وشهد بذلك (تلينو) الذى قال أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أسس فى وقت ما دينا ودولة . وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته .

وذلك ما عبر عنه (شاخت) حين قال : على ان الاسلام يعني أكثر من دين ، انه يمثل أبدا نظريات قانونية سياسية وجملة القول أنه نظام كامل يشمل الدين والدولة معا .

وهو ما أشار اليه (جب) حين قال : لقد صار واضحا ان الاسلام ، لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وانما استوجب اقامة مجتمع مستقل . له أسلوبه المعين فى الحكم ، وله قوانينه ونظمها الخاصة به .

هذا من ناحية (الفكرة) أما من ناحية التطبيق فان (الفرد كانتول سميث) فى كتابه عن « الاسلام فى العصر الحديث » كتب تحت عنوان « الاسلام والدنية التركية » ما يفهم منه أن سقوط الخلافة والغاء نظام الاسلام فى تركيا ، ليس الا عملا قامت به جماعة حاكمة ، ولكنه لا يمثل شعور الامة ، ولا يطابق سلوكها .

يقول : ان القول بأن الاتراك بإثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الاسلام لا يحظى بتأييد من الباحثين في الشرق أو الغرب وإنما هو مجرد احساس شائع بين الوربيين والمسلمين في الأقطار الأخرى والمسألة في حقيقتها لا تعدو الهيئة الحاكمة .

كما يردد البعاء :

ولذلك فإنه من المؤسف أن يجري بعض الكتاب العرب والمسلمين وراء مفاهيم غربية من خصوم الاسلام والدولة العثمانية ، ويرددون كلماتهم ويلوكون عباراتهم ويعادون منطق الاشياء الحقيقي ، فيخرجون بذلك عن دينهم وأصالتهم دون أن يقدروا النتائج التي تجيء من بعد ، والتي هي أكبر من تقديرهم وادرائهم ، فنجد مثلا الدكتور الخربوطلى الذى يقول فى كتابه عن « الخلافة الاسلامية » هذه العبارة المريرة : « فأفلت شمس الخلافة الاسلامية الى الابد » وكيف يمكن لباحث أو مؤرخ أن يتبنأ بأن الخلافة قد أفلت شمسها الى الابد ، وهل يملك من الادلة على ذلك دليلا واحدا أو نصف دليل وهو قول لم يقله أكثر الغربيين تعصبا ضد الاسلام .

والاليوم يرى هؤلاء انهم كانوا من قصر النظر ، بحيث جهلوا أن الحديث عن الخلافة الاسلامية لم يتوقف يوما واحدا منذ ذلك اليوم ، جرى في مناهج الدعوات والحركات والجماعات الاسلامية في العالم الاسلامي كله ، كغاية كبرى لابد من ملاحظتها ، وجرت حركات التجمع للتذكرة دوما بهذا الحق ، الذي لا تطويه الايام ولا تخفيه الاحداث ، مهما تغلف الحديث عنه بالضباب .

وما زلنا نسمع صيحات الدعوة الى اعادة الخلافة عالية وقوية من مسؤولين ومتذمرين متعددين ولا يزال المؤتمر الاسلامي الذى يضم أكثر من أربعين دولة اسلامية يضع هذه الحقيقة أمامه .

* * *

الوحدة الوجدانية ثم وحدة الفكر :

نعم ان المسلمين بعد اسقاط الخلافة عن طريق المؤامرة لم يستكينوا الى الهزيمة التى فرضت عليهم ، ودببت من وراء ارادتهم الحرارة ، ولكنهم فكرروا وقدروا ، وعملوا لمواجهة هذا الفراغ ، فأقاموا روابط كثيرة ومؤتمرات متعددة ، واذا كانت القوى الاستعمارية قد حالت دون تحقيق الوحدة السياسية فإنهم حققوا وحدة اجتماعية ووجدانية لا تزال تنمو قوية وقدرة على أن تتحقق فى مطلع القرن الخامس عشر (وحدة الفكر) التى هى الاساس المكين بعودة الخلافة الاسلامية ولقد كانت الازمات دائمًا قادرة على تجميع المسلمين ووحدتهم ازاء الاحداث والاخطر .

ولم يكن عمل عبد الحميد فى سبيل هذا التجمع الا قمة الایمان بالخطر وبالمسؤولية ازاء هذا الخطر ، واذا كانت حركته الى الوحدة الجامعية قد أجهضت فليس لأنها فشلت ، بل لأنها نجحت نجاحا مذهلا مما دفع القوى الاستعمارية والصهيونية الى القضاء عليها بإسقاطه قبل ان يتمكن من وضع القواعد التى يمكن ان تسير عليها موضع التنفيذ ، ثم جرى العمل على الاجهاز على القاعدة نفسها . واذا كان العرب بعد سقوط الوحدة الاسلامية قد تجمعوا حول وحدتهم ، فانهم لم يكونوا في ذلك عاملين على اعلاء

شأن العناصر والدماء ، ولكنهم كانوا يرون في الوحدة العربية حلقة وخطوة إلى عودة الوحدة الإسلامية الكبرى ، ولم يكونوا يفهمون منعروبة ما فهمه الغرب من القومية ، ذلك لأن العروبة إنما نشأت في أحضان الإسلام سمعة مؤمنة بالأخاء الإسلامي الكبير ، بعيدة عن العنصرية والتعصب والصراع ، وقائمة على وحدة قرآنية بالشريعة والإيمان ، ولكن القوى الخصيمية هي التي أفسدت مفهوم العروبة وقطعته عن صلاته بالوحدة الإسلامية .

* * *

عزل العروبة عن الإسلام :

لقد ضربت القوى الغاصبة هذا الاتجاه وعزلته عن جذوره ، كما ضربت من قبل الخيوط التي تجمعت في يد السلطان عبد الحميد ، وهكذا فإن اسقاط الخلافة لم يكن وفق سنة طبيعية أو قانون اجتماعي صحيح ، ولكنها كانت عملية اجهاض زيفت لها مبررات خادعة استطاعت أن تضليل البعض ولذلك فإن الخلافة الشرعية ستظل في فقه المسلمين وشريعة الإسلام وقلوب المؤمنين وعلى أقلام كتاب الإسلام عموداً أساسياً . فهي جزء لا يتجزأ من الإسلام ، ولعلها سقطت لتسقط معها خلافة عجزت عن تطبيق الإسلام تطبيقاً حقيقياً ، ليعود من بعد على مفهومها الأصيل وهو ما تتطلع إليه قلوب المسلمين وتهفو وتعده من آمال القرن الخامس عشر .

* * *

حقيقة مؤكدة :

والحقيقة التي يؤكدها الباحثون المنصفون : ان المسلمين لم يناموا على الضيم منذ اسقطت الخلافة الاسلامية وهم لا يستنبطون أو يفرون أو يغيب عليهم مدى خطورها وجلال شأنها والأثار البعيدة التي ترتبت على حجبها .

ومنذ ذلك الوقت والى اليوم فان الخلافة الاسلامية مبثوثة في كل أعمال التضامن الاسلامي والرابطة الاسلامية والاخوة الاسلامية الجامعة .

وقد أحس المسلمون اليوم بأن محاولات التجمع الوطنى والقومى لم تنجح لأنها ليست هي الوجهة الحقة الصادرة من أعماق الفطرة ، وان المنهج الصحيح هو اجتماع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوى بينهم مرة أخرى ، بعد ان تراخي فى السنوات الماضية تحت تأثير الدعوات الاقليمية والقومية ، غير أن هذه السنوات قد شهدت عشرات المؤتمرات والابحاث والمشروعات والدعوات التي تفتح الطريق الى وحدة المسلمين وتحقيق الغاية الكبرى .

ومن هذا العرض التاريخي فإننا نصل الى حقيقةتين :

الاولى : أن الخلافة هي بؤرة الجامعة الاسلامية وأن الجامعة الاسلامية يمكن أن تقوم أولا ثم تنبثق منها الخلافة ، وأن حركات التحرر والوحدة والتقارب التي تجري اليوم في عالم الاسلام يمكن أن تحقق ترابطا ثقافيا واجتماعيا قبل أن يصبح سياسيا وعسكريا .

الثانية : ان المسلمين بعد الغاء الخلافة لم يتفرقوا أيدى سبأ ، وان الهدف الذى كان يطمع فيه النفوذ الاستعمارى قد فشل تماما . وان العالم الاسلامى قد تلاقي على مستويات كبيرة وممتدة : اجتماعية وثقافية واقتصادية وأن الفكر الاسلامى ما زال هو المصدر الاول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الاسلامية .

وإذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسى استعماري دفين أخفى أمره طويلاً وبدقه ، وراء غلالات ، فإن المسلمين قد بدأوا أمامهم الحقائق سافرة اليوم ، وتنبهوا لما يراد بهم فسارعوا الى اتخاذ وسائل أخرى ، تمهد للوحدة فاندغمت رابطتهم فى مؤتمر الحج السنوى ، وفي الاتجاه الى الجامعات الاسلامية العلمية ، التي لا شك ستوحد الفكر والثقافة والتعليم ، وزاد من قوة هذه الروابط تحرر دولتين كبيرتين بعد الحرب العالمية الثانية هما الباكستان واندونيسيا وعشرات الدول ذات الأغلبية المسلمة فى جنوب شرق آسيا وافريقيا ، وبدأت لقاءات واسعة بين العناصر المختلفة من العرب والبربر والسنّة والشيعة والاكراد ، وتوثقت الصلات وزادت عمقا وخفت حدة الخصومات والخلافات ، التي أججها الاستعمار والنفوذ الغربي حرضا على استبقاء التمزق والخلاف ، كما كشفت الواقع حقائق كثيرة كانت مطمورة عن الصهيونية والماركسية وعلاقتهما وفشلت دعوات الانقلابية والقومية جمعا كما فشلت النظم السياسية الواحدة سواء الليبرالية منها أم الاشتراكية ولم يعد أمام المسلمين في مطلع القرن الخامس عشر بد من أن يقيموا مجتمعهم على أساس الشريعة الاسلامية ،

وظامهم السياسي على أساس الوحدة الإسلامية ، وسوف تنقشع السحب التي تحجب الضوء ويجد المسلمون أنفسهم مضطرين الى الالقاء ازاء الخطر الزاحف وهذا هو المنطلق الحقيقي لعودة الخلافة الإسلامية خلال هذا القرن الجديد .

الباب السابع

يقطة الاسلام في تركيا المسلمة

يقطة الاسلام في تركيا

صدرت في الفترة الأخيرة دراستين منفصلتين : أحدهما عن مصطفى كمال أتاتورك تحت اسم الرجل الصنم .

وكما صدرت دراسة عن المجاهد المسلم بديع الزمان سعيد النورسي للكاتبة الغربية المسلمة مريم جميلة .

كذلك فقد قدمت أطروحة من طالب لبناني في جامعة بيروت العربية تحت عنوان موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩ وفي نفس الوقت نشرت مذكرات السلطان عبد الحميد التي كانت مخفية خلال أكثر من سبعين عاما على صفحات الجرائد التركية والمجلات الإسلامية العربية فإذا أضفنا إلى ذلك ما كشفت عنه مذكرات هرتزل عن موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية العالمية عرفنا إلى أي حد تضع الوثائق بين أيدينا تلك الحقائق الضخمة التي تغير مفهوم التاريخ وتكشف زيف ما ظلت الكتب المدرسية والجامعية والثقافية في البلاد العربية خلال

هذه الفترة الطويلة نقدمه من شبّهات لصالح الاستعمار والصهيونية العالمية . فإذا أضفنا إلى هذا كله تلك النهضة الإسلامية الجديدة في تركيا والتي يقودها حزب السلام الوطني بقيادة الدكتور نجم الدين أرباقان (أستاذ الميكانيكا في الجامعة التقنية في استانبول) عرفنا إلى أي حد يمكن القول بأن تركيا قد عادت إلى الأصلة الإسلامية بعد أن انحرفت عنها عن طريق تلك المحاولة الخطيرة التي جرت لتغريبها عن أيدي جماعة الدونمة والاتحاديين والكماليين على طوال فترة امتدت خلال حكم السلطان عبد الحميد وبعد اسقاطه وخلال الفترة من ١٩٠٩ إلى الحرب العالمية الأولى حيث دخلت تركيا الحرب في صف المانيا وحاقت بها الهزيمة ، وحيث سلم حزب الاتحاديين الحاكم طرابلس الغرب لليطاليا وقبل معاهدة لوزان بتسليم الشام بأجزائه الاربعة إلى فرنسا وإنجلترا وفلسطين إلى اليهودية العالمية .

السلطان عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد قد عرف خطة الصهيونية العالمية في الاستيلاء على بيت المقدس واقامة هيكل سليمان نتيجة للمخططات التي كان يجري تنفيذها في الامبراطورية العثمانية تحت ستار التنظيمات الماسونية التي نشرتها قوى اليهودية في مختلف أنحاء بلاد الخلافة ، وكانت ركيزتهم الأساسية هي جماعة الدونمة في سالونيك ، هؤلاء اليهود الذين كانوا قد هاجروا من الاندلس بعد سقوطها في يد الفرنجة وانتهاء الحكم الإسلامي فيها ، فقد قصدوا إلى تركيا ليستظلوا بظل المسلمين بها ، وفي سالونيك كانت خطتهم لإقامة المحافل الماسونية واستقطاب

الاتحاديين لخدمة أهدافهم ، حتى استطاعوا اسقاط السلطان عبد الحميد حين عجزوا عن اغرائه أو احتوائه وكان للاتحاديين دورهم الخطير في هذه المؤامرة .

كان هرتزل قد حاول اغراء السلطان ليسمح لهم بالهجرة الى فلسطين ورفض العروض التي قدمت له فوضعهم أمام قرار التخلص منه : وقد وضح هذا في مذكرات هرتزل ، كما أشار اليه السلطان في الوثيقة المعروفة التي نشرتأخيرا :

« انى كأمانة فى ذمة التاريخ لم أتدخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما سوى اننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقى المعروفة باسم (جون ترك) وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة . ان هؤلاء الاتحاديين قد أصرروا بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود فى الاراضى المقدسة ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيرا وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية انجليزية فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية ايضا ، واجبتم بالجواب القطعى ، انه لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فلن أقبل تكليفكم ، لقد خدمت الملة الاسلامية والامة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فكيف أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعى وبعد جوابى اتفقوا على خلعى فقبلت التكليف وحمدت المولى انى لم ألطخ وجه الدولة العثمانية والعالم الاسلامى بهذا العار الابدى » .

وهكذا دفع السلطان عبد الحميد ثمن موقفه الحاسم من الصهيونية العالمية وكان للنفوذ الاجنبى مشاركة ضخمة في هذا

الامر ، ذلك لأن اللواء الذي رفعه تحت اسم « الجامعه الاسلامية » : خارج نطاق الدولة العثمانية : يا مسلمي العالم اتحدوا قد هز الدوائر الاستعمارية هزا شديدا ومن ثم كانت المؤامرة ذات شقين :

١ - اسقاط السلطان عبد الحميد : وهذه كانت مهمة الاتحاديين .

٢ - اسقاط الخلافة العثمانية : وهذه مهمة الكماليين .

ولم يكن الكماليون والاتحاديون الا فرع دوحة واحدة : تقاسمت العمل على مرحلتين للاجهاز على الدولة العثمانية والخلافة وفتح الطريق أمام الصهيونية العالمية لتصل الى فلسطين ، ولتمزق العرب والترك ولتمكن للاستعمار البريطاني والفرنسي من اقتسمان تركة ما كان يطلق عليه « الرجل المريض » .

ولقد كان السلطان عبد الحميد يعرف دخائلاً هذا المخطط كله : بفروعه وخليفاته ، فيما يتصل بالدونمة والمحافل المسئونية ومخططات الاتحاديين (تركيا الفتاة) وفي مقدمتهم مدحت وأحمد رضا . ويعرف الاهداف الخطيرة التي يدور حولها تأمر الصهيونية مع بريطانيا وغيرها من دول أوربا ، ولكنه بعد كل الوساطات التي بذلها هرتزل أرسل اليه كلمته الواضحة الحاسمة الصريحة :

« انصحوا الدكتور هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع . انى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الارض فهي ليست ملك يميني بل هي ملك شعبي . لقد قاتل شعبي فى سبيل هذه الارض ورواهما بدمه فليحتفظ اليهود بملايينهم . اذا

مزقت امبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق أولاً في جثنا . وانى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة » .

كان هذا الرد الحاسم هو منطلق الحملة العاصفة التي شتها الصهيونية والاستعمار على السلطان عبد الحميد عن طريق الصحف العربية التي كان يصدرها المارون اللبنانيون خصماً للإسلام والخلافة الإسلامية وهم الذين حملوا على السلطان تلك الحملات الضخمة (المقطم - المقتطف - الهلال) .

أمثال : جرجى زيدان ، فارس نمر ، صروف مكاريوس ، سليم سركيس ، لويس صابونجى ، وما أطلق عليه من اسم السلطان الاحمر ، وما ذهبوا يلفقونه من اتهامات كاذبة عن الدردنيل ومن يلقى فيه وعن السجون والاحكام مما ثبت من بعد أنه وهم باطل حتى لقد قال أحدهم لجماعة من السوريين زاروا تركيا وركبوا في الدردنيل مركبا : قولوا لنا اسم رجل واحد ألقاه السلطان أو أمر بالقائه في الدردنيل !

ولكنها كانت المحاولة لتدمير السلطان وسمعته وهدم مواقفه الكريمة قبل التامر عليه ولقد عاشت الصحف ودراسات المدارس والمؤرخين تحمل هذه الاكاذيب سنوات وسنوات حتى تكشف في الاخير فساد هذه الباطل والادعاءات .

يقول حسان حلاق في أطروحته « في الوقت الذي كانت المؤامرات تحاك في الخارج ضد الدولة العثمانية ، كانت مؤامرات تحاك في الداخل تضم مجموعات تركية ويهودية بتشجيع

من الدول الاستعمارية وكانت تهدف الى قلب نظام الحكم وخلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ، ذلك لأن السلطان كان العقبة التي تقف في طريق الصهيونية الى فلسطين ويؤكد القنصل البريطاني الجديد في القدس - بش - عام ١٩٠٨ المصاعب التي وضعها السلطان عبد الحميد الثاني في مواجهة الاستيطان اليهودي في فلسطين ويمكن القول أن اليهود لعبوا دورا فعالا في انقلاب عام ١٩٠٨ .

ويؤكد ستيفن واتسون هذه الحقيقة بقوله : « ان أصحاب العقول المحركة لحركة الانقلاب والترقى عام ١٩٠٨ كانوا يهودا ومن الدونمة اما المساعدات المالية فانما كانت تصلكم عن طريق الدونمة ويهود سالونيك المتمولين . وتقول صحيفة المشرق : (بأن الكل يعلم أن مركز الانقلاب انما كان في سالونيك واليهود فيها نيف وسبعون ألفا) وهناك معلومات تؤكد أن الحقيقة الظاهرة في تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير اسلامية وغير تركية فمنذ نشأتها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص .

كان جاوين يهوديا من الدونمة وقارصوه من اليهود الاسبان وطُلعت بلغاريا اما أحمد رضا فقد كان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا ، اما نسيم رoso ونسيم مازلياح فقد كانوا يهوديين . ويقول : ويزد دور اليهود ثانية في حادثة خلع السلطان عبد الحميد الثاني عندما مارس الاتحاديون الضغوط على مفتى الاسلام محمد ضياء الدين باصدار فتوى الخلع ثم أوفدوا هيئة مكونة من عارف حكمت وأسعد طوبتاني غالب باشا ومن زعماء اليهود قراصوه

رئيس المحفل الماسوني في سالونيك وسلمون ابران ووصلوا الى يلد لا بلاغ السلطان نبا الخلع .

وكانت مشاعر التأثر والانزعاج بادية عليه فقال بغضب : ما هو عمل هذا اليهودي . (يقصد قراصوه) في مقام الخلافة . بأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي . ويذكر القليب التركي (ديبريلي) بأن السلطان عبد الحميد حدثه عندما كان مسجوناً في سلانيك عن آخر اجتماع له مع الزعيم الصهيوني هرتزل ورئيس الحاخامين في تركيا فقال :

«تصور ان هذين اليهوديين مثلاً امامي ليقدما الى سلطنتنا رشوة . صرخت في وجههما قائلاً : ان أخرجنا من هنا ، ان الوطن لا يباع بالنقود . طلبت الى رجال القصر أن يقودهما حالاً الى خارج القصر . وبعد ذلك أصبح اليهود أعدائي فيما ألاقيه هنا في سلانيك من عذاب الاعتقال ليس سوى جزائي منهم حيث لم أرضن أن أقطع لهم أرضاً لدولتهم المزعومة » .

ويذكر السلطان نفسه في وثيقة على قدر من الاهمية موقف الاتحاديين والصهيونية من سياساته .

فيقول : «أن هؤلاء الاتحاديين اصرروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة - فلسطين - ووعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية وبعد جوابي القطعى اتفقوا على خلعى وأبلغونى أنهم سيعيدوننى إلى سلانيك » .

والمعروف أن السلطان عبد الحميد أقام اقامة جبرية في

سالونيك (مقر الدونمة اليهود) منذ عزل عام ١٩٠٩ الى عام ١٩١٦ حيث توفي الى رحمة الله في اقامة مجيدة سبعة .

ولا ريب أن مذكرات السلطان عبد الحميد التي نشرت أخيرا باللغة العربية قد كشفت كثيرا من الحقائق وجلت موقف هذا الرجل المسلم العظيم ، ودحضت تلك الصور الزائفة التي حشدتها في تاريخه الظالمون من الدونمة واليهود والاستعماريين والموارنة في تلك الكتب التي سبق أن ترجمت إلى العربية من مثل كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) أو قصة الانقلاب العثماني لجرجي زيدان وغيرها ، لقد عاشت هذه الحقائق مدفونة في الأضابير أكثر من خمسين عاما حتى أذن الله لها بأن تكشف وأن توضع الحقائق في مكانها الحق وإن تصحيح وقائع التاريخ .

لقد كشفت المذكرات كيف كان السلطان عبد الحميد ضحية مؤامرات صهيونية واستعمارية غاشمة كانت تهدف إلى تقويض دعائم الخلافة وتفكيك أوصال الدولة العثمانية وان الخليفة واجه الاغراء والتأمر جميرا بإباء وشمم اسلامى وكان يعرف مصيره ، ولكنه آثر رضاء الله على رضاء اليهود ومطامع الدنيا .

وقد أشار السلطان في مذكراته إلى ما ظل منشورا أكثر من خمسين عاما من كذب وبهتان حين قال : « ان الامة تنسى بسرعة ، اقولها مستميحـا العذر للذين يجادلونـي سياسيا دون تبصر بما يدور من وراء الستار من لااعيب وما تهـيئه الدولـ الكبرى من مؤامرات عدوانية . لقد اتهمونـي بالخور لانـى لم أشتـرك بالحركات القومـية قلبا وقـالـها . لعلـهم ينسـون المـأسـى التـى جـابـتها » .

لقد تحدث السلطان عن الدسـائـس الاجـنبـية والفسـاد فـي

أجهزة الحكم والحملات الصليبية على الدولة وتحدث عن ثروته ومخصصاته وكيفية انفاقها وما ترتب عليه من التزامات وواجبات .

مصطفى كمال

لقد كان القضاء على السلطان عبد الحميد مقدمة للقضاء على الخلافة الاسلامية ، وكان بطل هذه المرحلة مصطفى كمال : الذي أطلق على نفسه زورا وبهتانا (أتاتورك) أى أبي الشعب التركي . ولقد الفت فى تمجيد أتاتورك وتكريمه مئات الكتب بلا مبالغة استهدفت خلق حالة متوجهة كاذبة لهذا الرجل الذى حطم طابع الاسلام فى دولة الخلافة ونقلها من أقصى مكان فى خدمة الاسلام الى أقصى مكان فى خصومه الاسلام ومعارضته ويکفى أن يراجع المثقف المسلم رعوس الموضوعات التالية :

- ألغى الحروف العربية وفرض الحروف اللاتينية حتى فى طبع المصحف الشريف .
- ألغى الشريعة الاسلامية وفرض قوانين الأحوال الشخصية .
- حرم تعدد الزوجات وجعل القضاء وحده هو الفصل في طلب الطلاق .
- عدل قوانين المواريث الاسلامية فسوى بين ابن والبنت .
- أباح للمرأة الخروج والرقص والسفور ودفعها دفعا الى مجالات الهوى والفساد .
- أباح للمرأة المسلمة أن تتزوج بمن تشاء من أي دين .

- قرر الغاء الأوقاف الإسلامية .
- جعل للدولة علمانية وقرر أن الدين قضية شخصية لكل فرد .
- ألغي الخلافة الإسلامية والمحاكم الشرعية وقوانين الشريعة الإسلامية وقرر العمل بالقانون المدني السويسري والجنائي الإيطالي والتجاري الألماني .
- منع التعليم الديني ومنع الأذان بالعربية وحطمت الأساس الديني وغير وجهة الشعب التركي .

ولقد خدع مصطفى كمال المسلمين في المرحلة الأولى من حياته ولكنه ما أُنْ تمكن من امتلاك ارادة الحكم حتى كشف القناع عن عداء سافر للاسلام حتى وصف بأنه واحداً من ثلاثة أما من طائفة الدونمة أو من الماسونية وقع في حبائل اليهودية العالمية أو من فلاة الطورانية التركية .

وقد كانت حياته الشخصية مثلاً رديئاً للحاكم المسلم فقد عرف باسرافه في الخمر وعلاقات الفساد والاعتداء والسطو والقتل بالظنة ، وكشفت تصرفاته عن تعريضه للدين عامة وللاسلام بصفة خاصة ، ويرجع ذلك إلى أنه كان تلميذاً أصيلاً لتعاليم ضياء كوك الب ، داعية الطورانية وعودة الأتراك إلى أجدادهم القدماء والتذكر لتاريخهم الإسلامي .

ولقد كان أشد قسوة بالنسبة لرجال الاسلام الذين عارضوه ودفعوا الناس إلى مقاومته والتخلص منه .

وقد كشف الضابط التركي السابق في كتابه (الرجل الصنم)

كمال أتاتورك الذى ترجمه الاستاذ عبد الله عبد الرحمن هذه الجوانب المظلمة والغامضة والسوداء من حياة هذا الرجل على نحو واضح صريح ، وكانت آية الآيات فى حياته هو ذلك الولاء المزدوج لبريطانيا وروسيا الشيوعية فى آن ، ولقد تكشف أن هناك معاهدة سرية أقرها مصطفى كمال وبها أعطى حق الحكم والسلطان فى تركيا يتضمن عدة مبادئ أهمها :

- الحكم بالنظام الفردى واسقاط الشريعة الاسلامية وتطبيق القانون الوضيع .
- القضاء على علماء الاسلام واخراجهم من البلاد .
- القضاء على الخلافة الاسلامية .
- القضاء على القرآن واللغة العربية .

والمراجع لحياة كمال أتاتورك يبين له بوضوح أنه قام بتنفيذ هذه المعاهدة السرية التى قيل انها كانت مرفقة بمعاهدة لوزان تنفيذا صحيحا .

ان هذا الكتاب يقدم مجموعة ضخمة من الوثائق عن حياة مصطفى كمال لا يستطيع الباحث المنصف ان يتجاوزها دون أن يسجل بعض الخيوط العامة .

أولا : عن صلته بالانجليز : وما تحمله الوثائق مشيرا الى عبارة : قيامه ببيع الوطن الى الانجليز (ص ٤٧٣) وان البطل الحقيقى لمعارك أزمير هو (قره بكير) وليس مصطفى كمال . وانه كان يعمل ديكاتورا ويدير الدولة مثلما تدار مزرعة ، وانه كان يقوم بفرض رأيه على كل عمل وتقول (ص ٤٨١) بعد أن حصل على

منصب القائد العام بالحيل والطرق الملتوية لم يدع هذا المنصب يخرج أبداً من يديه وقد قام ب بواسطة رجاله الفدائين من تهديد معارضيه والقضاء عليهم ولم يظهر في الجيش العثماني عسكري ظالم وحريص على المنصب إلى هذه الدرجة مثله . استولى على مساعدات العالم الإسلامي (ص ٤٨٩) نفذ كل ما طلبه منه الانجليز :

- ١ - ترك الموصل .
- ٢ - ترك الجزر لليونانيين .
- ٣ - تنازل عن كل الحقوق حول مصر وقبرص .
- ٤ - تنازل عن طلب التعويضات من اليونان .
- ٥ - عدم تحصين المضايق أو وضع جند حولها وتجريد المنطقة الممتدة من مضيق البحر الأسود حتى مضيق (خبه قلعة) .
- ٦ - ألغى الخلافة .
- ٧ - ألغى العلمانية (ص ٤٩٠) .

كذلك كشفت هذه الوثائق عن أنه ماسوني (أورد ذلك فالح رفقى أثاري) مؤلف كتاب (جانقايا) يقول : (لو لم يكن مصطفى كمال ماسونيا فمن كان يتطاول إلى الانساب إلى مثل هذه الجمعية السرية فى عهده . (ص ٤٩٢) كذلك أشارت الوثائق إلى موضوع الاتصال بالنساء وطالبات المدارس ، مما كان حديث المجالس .

ويشير الكاتب إلى أخطر موقف في حياة مصطفى كمال وهو الغاء الخلافة : يقول الكاتب انه عندما عرض الامر على الهيئة المكونة لبحث الامر تردد الأعضاء فوقف يقول :

«ان هذا أمر محتم ، انى أرى أن من المستحسن أن يوافق المجتمعون هنا وأعضاء المجلس وكل واحد ولكن اذا حدث العكس فان هذا الامر سينفذ وفي اطار المجرى الطبيعي ولكن من المحتمل أن بعض الرءوس ستقطع » .

سعيد النورنسى

ولكن هذه السنوات المظلمة لم تمر دون مقاومة ، فقد ظهر كثير من دعاة الحق يكشفون زيف اتجاه مصطفى كمال وكان أبرزهم الشيخ بديع الزمان سعيد النورنسى ، الذى كان قد حضر الى استانبول من شرقى تركيا فى عهد السلطان عبد الحميد يطلب فتح المدارس وانشاء جامعة فى ديار بكر وتطوع للقتال وأسره الروس ونفوذه الى سبييريا ولكنه تمكן من الفرار والعودة الى تركيا فانضم الى حركة مصطفى كمال التى كانت تستهدف تحرير الوطن ثم اختلف مع أتاتورك حين ظهر الانحراف فنفته السلطة الى غرب البلاد فظل بين نفى وسجن وتحديد اقامة من ١٩٢٨ الى ١٩٥٠ ألف خلالها ألف ومائة وثلاثين كتاب سماها (رسائل النور) شرح فيها الاسلام بأسلوب استهوى الشباب فتناقل الناس هذه الرسائل نسخا باليد وأصبح قراء هذه الرسائل يسمون طلاب رسائل النور أو جماعة نور جو وبلغ عددهم ثلاثة ملايين شاب تركى وقد أصبحت هذه الجماعة القوة الحقيقية فى الجامعات التى سحقت حزب الشعب (حزب أتاتورك) وعزلت عصمت اينونو خليفة أتاتورك من الحكم .

والواقع أن سعيد النورنسى كما تقول مريم جميلة فى كتابها

عنه كان رجلاً عالى الایمان مقتدرًا فى فهم الاسلام تقول : « كانت روحانيته العالية فوق المحن والامتحان » ولذلك فانه ما كاد يدخل السجن حتى أصبح سجانوه من تلاميذه ومن أحسن الناس تدinya وغيرها على العقيدة ، فقد تهافت زواره في عزلته على استنساخ ما تنتجه عبقريته المؤمنة بحيث لم يمر وقت قصير حتى كانت عشرات الآلاف من مخطوطات هذا التفسير تتناقلها الايدي وتدرس في المدن والقرى والمدارس وحتى الوزارات : يقول بديع الزمان النورنسى : لقد أتاحت لى آلام المنفى والسجن والاعتقال فترة هدوء وصفاء أتاحت لى التأمل في الحقيقة القرآنية الخالدة .

غير ان السلطات لم تدعه يعمل ، فعمدت الى تلفيق تهمة ضده وضد مائة وعشرين من أتباعه ومربييه ساقتهم الى محكمة الجرائم فأخذ يدلل بدفعاته أمامها فقال : الحق اننى لا أنمى بأى حال من الاحوال الاستيلاء على زمام الحكم ، وكل ما أسعى اليه هو أن أهدى قومى الى الصراط المستقيم صراط الله العزيز الحكيم . نحن لا ننتمى لآلية نحلة من التحل ولا نندعوا لعصبية ولا لفرقة ولكننا أنصار متحمسون للحقيقة : الله غايتنا والرسول قائدنا والشرع الشريف دستورنا . اننا لا نملك أي تنظيم خاص ونحن بمعرض عن السياسة وكتابنا رسالة النور مدرسة بدون مدارس ولا مناهج ولا أموال ، انها مدرسة روحية كتابها القرآن المتنزل .

ثم أضاف يقول : لقد أكد وكيل الاتهام بأنه بلغ من مدى ذيوع (رسالة النور) أن قرأها عام ١٩٤٧ ستمائة ألف شخص منتشرين عبر اقليم الاناضول من أساتذة وعمال وفلاحين وطلبة وموظفين ، وماذا في ذلك ؟ فقد أدت تلك القراءة بوحد منهن الى

اهمال واجباته أو الانقطاع عن نشاطه ، وهل قام واحد منهم بتهديد الامن العام أو خرق دستور البلاد ، اذا فكيف تبيحون لانفسكم غلق هذه المدرسة التي تتبع أصولها من قلوب مثل هذا العدد العظيم من المواطنين الآتراك .

ان البعض يأخذ باعتمادى طربوشًا على رأسى ويرى عدم خلعى له اهانة لمجلسكم الموقر . تذكروا أنهم قلة أولئك الذين استبدلوا عن طوعية ورضا عمائهم ببغطاء الرئيس الأوروبي واذكروا ان الملايين من الآتراك أكرهوا على ذلك الاستبدال اكراهًاً ويجري ذلك في الوقت الذي يتاح فيه للماسونيين وأشياعهم من أن يسخروا - بكل حرية وفي جرأة ووقاحة - بالاسلام وأن يتمدحوا ويمجدوا ملذات الخمور وان يزينوا الزنى وان يشوّقوا الناس الى القمر ، في حين يحرم عليّ وعلى اتباعى أن نذيع ونشر رسالة القرآن المجيد وأن ندعوا الى الله ، أنكم تتهمنى بأننى رجعى شرير وأنتم تعلمون اننى من أبطال الوطنية منذ نعومة أظفارى وانى أخص النمل بجانب راتب من قوتى اعجابا منى بتنظيمها الديمقراطي ، وأنكم لتزعمون اننى أدعوا الى ضرب من التصوف .

وأنا أؤكد لكم أن الجنة ليست للمتصرفون وحدهم ، ولكن من المؤكد أنه من المستحيل أن يدخل الجنة من لا يؤمّن بالله ولا يتلزم بشرعه في ظرف عشرين سنة تعاقبت أثناءها على دست الحكم ثلاث حكومات من لدن أتاتورك حتى الآن وفي خلال هذه الفترة مثلث أمام محكمتين ولكن آية منها لم يتتوفر لديها أى دليل على ادانتى ، بله تلك القرية التي تزعم اننى عدو لتركيا . وإذا كان الامر كذلك فاتركونى لاداء رسالتى .

ثم لم يلبثوا أن أحالوه مرة أخرى إلى المحاكمة . قال : «أفترضون أيها الحكماء أني عملت لغاية نفعية . ها إنذا أمامكم شيخ يحمل على كتفيه ثقال الثمانين ، رجله في القبر ، فقير لا يملك شيئاً من متع الدنيا لا مالا ولا عقاراً فماذا ترونني صانعاً وأنا في هذا السن بمتعب الحياة الدنيا ، لقد قضيت حياتي فوق ساحات السوعى ، كما عانيت الاعتقال في محشادات الاسرى ، وعشت طريداً في المنافى والسجون ، لقد طاردتني من مكان لأخر ، وابعدتني من مدينة لغيرها كأنني متشرد منبوذ من المجتمع .

ولم تتورعا حتى من حرمانى من الاتصال بأهلى وأقاربى وأصدقائى ولو لم يكن ايمانى واحتسابى يعصمانى من الوقوع فى وحدة اليأس لاستطبت الموت وفضله على مثل هذه الحياة المنغصة ولكن هذه الحياة على غصصها وألامها أتاحت لي أن أكتب «رسالة النور» التي بفضلها أتيحت السلامة من العذاب الدائم لما يزيد عن النصف مليون من الناس ، فالله أعلم ألف مرة واياهأشكر أن وفقنى للتضحية من أجل شعبي . ان عذاب النار أو نعيم الجنان عندي سيان اذا ما حججت القرآن في هذه الدنيا لأننى وان أكن منعما في الجنة فانى لأشعر بدبيب الالم يمشى في أعماق نفسي اذا ما حصل ذلك . بيد أننى لأشعر بسعادة عارمة تملأ على نفسى اذا سلمت العقيدة في وطني تركيا . ولو كنت أعذب في أعماق الجحيم » .

وهكذا قيس الله لتركيا رجلاً حفته رحمة الله من أن يشنق أو يقتل حتى أدى رسالته فمن سعير هذا الجحيم ، نشاً وكتب ، وحفظ الله له ما كتب فوصل إلى كل مكان وانتفعت به الملايين ،

وحرر الفكر الاسلامى التركى من التبعية .

وكان النورنسي عالما بكل أساليب الاتحاد والترقى والكماليين ، مؤمنا بأن دعوة القرآن هى المنطلق الوحيد للاصلاح ولانقاذ المسلمين . « لم ينفك يدعى الشعب بحرارة وايمان الى التمسك بأهداف القرآن الكريم كما لم ينفك يحذر مواطنه من الوقوع فى حبائل الغرب مبينا لهم أن البديل الوحيد للاسلام هو العبودية للغرب وأن المسير فى ركاب الغرب يؤدى حتما الى فناء الذاتية وذوبان الشخصية » .

ولقد كانت عباراته أمام محكميه مليئة بالايمان والقوة :

« لو كنت أملك ألف روح ، لضحيت بهن الواحدة تلو الأخرى طائعا مختارا في سبيل الذود عن الاسلام ، ان أى عمل يتناقض مع الاسلام ما هو الا باطل في اعتقادى واننى في هذه اللحظة لاضع قدمى على أبواب البرزخ في انتظار الرقدة التي ستقودنى إلى العالم الآخر ، وأنا مطمئن ومستعد كل الاستعداد للرحيل إلى الدار الباقيه ، لالحق باخوانى الذى أنقذهم قرار محكمتكم الجائر من حياة الطغيان والعلو في الارض بغير الحق » .

وفي كل مكان كان يدافع عن الحق : « لو أن المسلمين أخلصوا لعقيدتهم ودافعوا عنها بكل قوة وايمان لامكن أن تحل الحضارة الاسلامية محل الحضارة الغربية التي ينخرها سوس الاطماع الخسيسة والشقاقي بالإضافة الى أنها خاوية من كل اتجاه روحي » .

وتعرض للموت أكثر من مرة ، عندما حكموا عليه بالاعدام ثم أطلقوا سراحه وعندما أسره الروس في الحرب العالمية الثانية حكموا عليه بالاعدام ثم عفى عنه .

ولقد كان يهز الناس كلما تكلم حتى أعضاء برلمان أتاتورك حين وجه إليهم مذكرة من عشر نقاط قال في مقدمتها :

اتقوا يوماً تقفون فيه أمام الله سبحانه ولا يغرنكم انتصاركم بالامس على العدو لتفسدو هذا النصر بسلوك فخر ، انكم ان تختاروا تقليد الاوربيين فانكم ستتفقدون عطف ومؤازرة العالم الاسلامي الذي سيتحول عنكم الى جهة أخرى » فكان من اثرها أن التزم مائة وستون نائباً على الالتزام بشعائر الاسلام في حياتهم وسلوكهم .

وقد حاول مصطفى كمال أن يستدرجه لموالاة نظامه عن طريق الاغراء المادي ، فعرض عليه أن يكون الامام الاكبر لاقليم الاناضول ، ولكن بديع الزمان كان فوق كل اغراء ، وفضل الانزواء والبعد عن ضجيج المدن ، حيث نصب نفسه داعية الى الله فاجتمعت اليه هذه البذرة التي نمت من بعد وسرعان ما التفت الفئة الحاكمة الى هذا النشاط وعملت على تعطيله وأبعادته الى منطقة نائية في أعماق تركيا ظل مبعداً بها ثمانية أعوام محروماً من الاتصال بأفراد أسرته وأهله .

ومات أتاتورك عام ١٩٣٨ وعاش النورنسي الى ١٩٦٨ وثلاثون عاماً بعد أتاتورك أفسح الله فيها العمل لدعوة الحق ، ومات ليلاً السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر عن ست وثمانين

سنة ، بعد أن ترك ذلك التراث الطيب وتلك الجماعة المؤمنة التي هي عماد النهضة الإسلامية في تركيا اليوم .

نجم الدين أرياقان

ومن نقطة (رسائل النور) بدا التحول في تركيا الإسلامية مرة أخرى عودة إلى المذاهب ، ويرى المؤرخون أن انتخابات عام ١٩٥٠ يعتبر نقطة التحول في تاريخ تركيا الحديث ، كانت بدأ سقوط ذلك الفكر العلماني الفاسد الذي سيطر على تركيا وهزيمة حزب الشعب : حزب أتاتورك ، فقد كان حزب عدنان من درس (الحزب الديمقراطي) قد قدم برنامجاً يتضمن عودة الأذان بالعربية ، والسماح للاجئين بالحج ، وإعادة تدريس الدين بالمدارس وإعادة آيا صوفيا مسجداً ، ومن ثم فقد حصل على ثلاثة وثمانين مقعداً وسقط حزب أتاتورك الذي حصل على (٣٢ مقعداً) وكان من مطالع التحول الجديد :

ان عقد عدنان من درس أول جلسة لمجلس الوزراء في غرة رمضان وأعاد الأذان باللغة العربية وبدأ تعمير المساجد واستعادت الحكومة المساجد التي باعها أتاتورك وتقرر تدريس الدين بالمدارس ، وفتحت مدرستان للائمة وفتح خمس وثلاثين ألف مدرسة لتحفيظ القرآن .

ومن قلب هذه الأحداث نشأ حزب السلام الوطني الذي اقترنت اسمه باسم الدكتور نجم الدين أرياقان أستاذ الميكانيكا في الجامعة التقنية باسطنبول .

وبذلك بُرِزَ في تركيا في وضوح اتجاه إسلامي واضح وعميق

من خلال التحرك السياسي .

وكان حزب السلامة عالمة على الفكر الوطني الاصيل الذى يستمد جذوره من الاسلام ، وسطا بين حزب الفكر الحر الليبرالي (حزب العدالة) والفكر اليسارى (حزب الشعب الجمهورى) .

وبذلك أصبح حزب السلامة عامل الموازنة فى الحياة السياسية التركية . وقد كانت بيانات حزب السلامة تعلن دائما أنها تهدف بالوصول بالامة التركية الى أن تنهض معنويا وماديا ، وأن الشعور الوطنى للامة كل لا يتجزأ ، والشعب التركى مرتبط بماضيه يحترم تراثه وعرقه ويحافظ عليهم وهو بعيد عن كل تقليد مدرك تمام الادراك لشخصيته الاصلية .

ويقرر حزب السلامة : ضرورة الغاء الربا بكل حزم والقضاء على الاسراف . وقد أعلن برنامجا طويلا للتصنيع ومنها المصانع الحربية بدلا من الخضوع للدولة الاجنبية .

ويقول نجم الدين : نريد ان تكون تركيا دولة رائدة ، وليس تابعة تدور في فلك الآخرين .

وقد قام الحزب خلال اشتراكه في الحكم بتخصيص ٤٠ مليون ليرة تركية لمشروع جامع القرية ، وتخصيص ميزانية جديدة لقادر الائمة والمؤذنين ومدارس تحفيظ القرآن ، ووجه الحزب عناية واضحة لمدارس الائمة والخطباء .

كذلك حمل الحزب على المطبوعات المخلة بالأدب ، أقام أكاديمية للعلوم الاسلامية واعد لها قانونا بالفعل وضاعف عدد المعاهد الاسلامية العالية .

وكشف نجم الدين عن فساد الفكر الوافد سواء الاشتراكي منه او الرأسمالي : فقال عن الاول انه فكر يهدد الحريات ويضر بالكيان القومي ويركز على مصادر أجنبية اما الفكر الرأسمالي فهو فكر يقوم على الربا ومصدره أجنبى ايضا اما حزب السلامة فيمضى فى طريقه رافعا راية الاخلاق والاصالة وقال ان النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكي لا يقتصران على ميدان الاقتصاد وانما يمتد تأثيرها الى الميدانين الاجتماعى والمعنوى ورغم اختلاف النظامين فى الظاهر فكلاهما مادى وكلاهما نفعى كلاهما يريد ربط الامم الاخرى به ثقافيا وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادى فى مقابل انحطاط فى الاخلاق والمعنويات وكلاهما يزداد ارتفاعا ماديا مع هبوط فى الثقافة والاخلاق .

وفي مختلف ميادين السياسة الدولية قدم نجم الدين مفاهيم اسلامية أصلية : وقد لخصت جريدة ازيجر الالمانية هذا التحول الخطير بقولها : «أن عودة الاسلام لتركيا ومخالفتها بذلك لاسس الدولة العلمانية التى أرسىأتا تورك دعائهما لمشار تفكير من قبل جهات عدة ، ان المستفيد من هذا كله حزب السلامة الذى هو ضد عضوية تركيا فى حلف شمال الاطلنطي ودخول تركيا عضوا في السوق الاوربية المشتركة .

ولقد دعا نجم الدين الى ضرورة تطوير علاقات تركيا بالعالم الاسلامى من جميع الوجوه وان لا تظل هذه العلاقات صورية وانما يجب أن تكون علاقات فعلية متطرفة ، حيث أن فى العالم مايقرب من خمسين دولة اسلامية يبلغ سكانها مليارا وهذه الدول الاسلامية سوق طبيعية قوية لانتاجنا » .

وهكذا حدث تحول كبير في تركيا بعد أن ظل حزب الشعب الذي أنشأه مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٣ - ١٩٥٠ حزبا علمانياً وعندما مات أتاتورك ١٩٣٨ خلفه عصمت اينونو في رئاسة الحزب ، ومنذ عام ١٩٥٠ لم يستطع هذا الحزب ان يحكم بمفرده وان دخل أحياناً الوزارة في ائتلاف مع احزاب أخرى ، ويعبر حزب السلام رسمياً عن اتجاهاته بعبارات الاخلاق والمعنويات والعودة الى التراث والمحافظة على المقدسات ، وقد كان من اثر ذلك انه عندما مات خليفة اينونو رفض الشعب الاشتراك في الجنازة ولما حملوه الى احد المساجد رفض الامام ان يصلى على جثمانه .

وترک المسجد وظلوا يتلقون به من مسجد الى آخر حتى عثروا على شيخ يقوم بهذه المهمة وما كاد الشعب يعرف ذلك حتى حاصر المسجد وهم بخطف الجثمان ولم تتم الصلاة على جثمانه الا في حماية الجيش .

ولم تكسب تركيا من التجربة شيئاً ، قال اقبال : « انكم أيها الاتراك أخذتم جواراً وصحتها مع انكم كتم بفضل الاسلام على مقربة من النجوم والكواكب » ويقول أرنولد تويني ان تركيا عندما تغربت أصبحت عالة على التكنولوجيا الغربية ولم تستطع ان تقدم شيئاً ، وقد ظلت تركيا حتى يومنا هذا متخلفة بمقاييس التقدم والحضارة لم يعترف بها الغرب كدولة أوربية وما علاقتها بالغرب الا علاقة الاحلاف والتبعية .

ولقد كان من أبرز عوامل التقارب مع العالم الاسلامي : انعقاد مؤتمر السيرة النبوية بتركيا عام ١٩٧٧ فقد أحدث شعوراً طيباً بتعظيم هذا الاتجاه الاصيل .

ولقد كان من أبرز أحداث هذا المؤتمر ، ان تم بين المؤتمرين الى عقد اتفاق يجدد واجباتهم نحو عقيدتهم وبلادهم وقد حرر الاتفاق على صيغة تعهد التزم به المسؤولون عن الصحافة الاسلامية التي شاركت في المؤتمر . ركز الميثاق القول بأن الاسلام يدعوا الى تثبيت الاخوة الاسلامية ومحاربة كل فكرة عنصرية او سلالية ولذلك فان الصحافة الاسلامية تتلزم بالعمل لتشبيت فكرة الاخوة بين مختلف الشعوب الاسلامية .

وهكذا تزحف تركيا مرة اخرى بقوة الى استعادة مكانتها فى عالم الاصالة والقيم وحضارة الاسلام وتحطم ما عاقدتها خلال خمسين عاما عن أداء دورها المرموق .

باب الثامن

الدراة المفتسبة بعد ثلثين عاما

هناك وقفة مستأنية تحتاج الى دراسة ومراجعة للنفس المسلمة والعربيّة بمناسبة مرور ثلثين عاما على احتلال فلسطين وما تزال الخطط قاصرة عن استيعاب هذه القضية الكبرى وهذا الحدث الخطير وقد تكشفت في السنوات الأخيرة حقائق كثيرة : أبرزها أن وراء قيام إسرائيل مخطط يهودي استعماري عالمي يستهدف قيام امبراطورية الربا وتنفيذ مخططات بروتوكولات صهيون التي تستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على العالم كله عام ١٩٩٨ .

وان المرحلة التي يمر بها المخطط اليوم هو محاولة احتواء عالم الاسلام وفكره وعقيدته بعد أن استطاعت التلمودية الصهيونية احتواء عالم الغرب .

وان الخطة مرت في عدة مراحل : أولاها محاولة احتواء الدولة العثمانية والسيطرة على السلطان عبد الحميد وفشل هذه المحاولة والتخطيط لتمزيق الدولة واسقاط السلطان وقيام الدونمة بهذه الخطة من خلال المحافل الماسونية وحزب الاتحاد والترقي

الذى احتوته الصهيونية ومنذ أسقط السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ فقد انفتح الطريق الى فلسطين عن طريق الاتحاديين حكام تركيا الذى أسلموها الى الهزيمة فى الحرب العالمية الاولى ، كما سلموا طرابلس الغرب للاحتلال الایطالى وكان ذلك مقدمة لاسقاط الخلافة الاسلامية عام ١٩٢٤ ولوعد بلفور ١٩١٨ وتوسيع الهجرة اليهودية الى الحد الذى مكن من اتمام مؤامرة قيام اسرائيل ١٩٤٨ ثم احتلال القدس ١٩٦٧ وقد كشفت الوثائق خلال هذه الفترة عن خطة ترمى الى تهجير يهود العالم الى اسرائيل واقامة اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات وكانت أبرز الظواهر فى الفترة الاخيرة هجرة اليهود السوفيت بأعداد ضخمة الى اسرائيل .

وان كان ايضا من الظواهر الواضحة ارتفاع عدد المهاجرين الى خارج اسرائيل وكذلك كشفت التصريحات التى جرت على السنة قادة اسرائيل هدف تدمير الحضارة العربية الاسلامية واقامة الحضارة العبرية على أساسها ، كما كشفت عن هدف اعادة بناء هيكل سليمان فوق ارض المسجد الاقصى .

وحيث يوجد اليوم فى فلسطين المحتلة حوالي ثلاثة ملايين نسمة ، فان فى العالم ما يتراوح بين ١٣ و ١٨ مليون يهودي يقيمون بين امريكا الشمالية والاتحاد السوفييتي وتستهدف الخطة جمع هؤلاء تحت راية اسرائيل ولذلك فان فكرة التوسع هي من العوامل المقدمة فى النظره اليهودية على مسألة الامن وذلك جريا وراء مخطط امتلاك القوة الاقتصادية التى تحاول السيطرة على مقدرات البلاد العربية .

ولا ريب أن هذا المخطط فاسد من أساسه لانه يقوم على

الاعتماد على معونة الدول الغربية وانه بعد ثلاثين عاما لم تستطع اسرائيل أن توجد لها كيانا اقتصاديا ذاتيا يمكنها من القيام بنفسها فضلا عن ذلك الشتات المنوع المتضارب المجموع من مختلف بلاد العالم والذى لا يمثل روح أمة أو وطن ، فضلا عن تلك التفرقة العميقه بين يهود المشرق ويهود الغرب كل هذه العوامل فضلا عن الوجود غير الطبيعي على الارض العربية من شأنه ان يكشف عن فساد قاعدة الاستمرار او البقاء و يجعل الفناء محتملاً ، لا سيما وان القوة العسكرية العربية تنمو يوما بعد يوم بالإضافة الى مقدرات الثروة والطاقة والتلوق البشري .

ولقد تعالت أصوات دعاة الاسلام الى تعديل أسلوب العمل بجعله اسلاميا واتخاذ منهج الاسلام بالجهاد طريقا الى تحقيق الغاية وتقريب موعد النصر ولقد كانت تجربة (رمضان) وما تزال علامة على الطريق .

ان هناك محاولة ضخمة لتسميم عقول المسلمين والعرب بعد التحول التاريخي الذى اتجه اليه المسلمون والعرب حين التمسوا منهجهم الاصليل فى العاشر من رمضان :

هذه المحاولة تستهدف فرض تفسير زائف للتاريخ الاسلامي الحديث يحاول أن يجعل من (اسرائيل) وجودا .

أقامته أوربا والغرب وكأنه ليس وجودا قائما بذاته من وراء مطامع الصهيونية العالمية وبروتوكولات صهيون ولا ريب ان المروجين لهذه السموم هم الماركسيون والتقديميون واليساريون ، الذين كانت الماركسية فى أيديهم ولا تزال خادمة للصهيونية

العالمية وهى من صنعتها أصلاً أن الهدف هو هذه المنطقة الفريدة فى العالم «منطقة دعوة الاسلام ومقدرات المسلمين الضخمة التى تستهدف بالاحتواء والسيطرة والغزو والتى سوف تظل دائماً قادرة على المقاومة ساهرة على حراسه مقدراتها ، مرابطة فى سبيل الحفاظ على كيانها وجودها ، وسوف لا يضحي المسلمين والعرب بعقيدتهم وتراثهم فى سبيل ما يسمى العلم والتكنولوجيا وانهم لقادرون على امتلاك هذه القوة وقد أخذوا بها فعلاً فلم يبق هذا ما يسمى بالصراع الحضارى : ذلك ان الوجود الاسرائيلي هو فى طبيعته وجود غير قائم بذاته لا يعتمد على أمة صحيحة وليس اليهود اسرائيل هم يهود التوراة أو أبناء يعقوب وليس لدى اسرائيل ما لدى العرب من الطاقة والتفوق البشري والقوة الاقتصادية وان هذا المجتمع المنهل المجتمع من شذوذ الآفاق لا يمكن أن يكون اقوى على الحياة من أهل هذه الأرض ، فأين اذن التفوق الحياة من أهل هذه الأرض ، فأين اذن التفوق الحضارى وأين يقوم الصراع الحضارى واسرائيل تعيش على المساعدات الخارجية ولم يتمكن بعد ثلاثة عاماً اليوم من ان تعيش على مواردها وان تكون قادرة بمفردها للدفاع عن وجودها ، ذلك لأنها بطبيعة تركيبها العدوانى لا تستطيع ان تمثل مجتمعاً حقيقياً ولا وجوداً صحيحاً . ولو لا دورها الذى تقوم به فى خدمة النفوذ الاجنبى على هيئة كلب الحراسة لسقطت من اليوم الاول لوجودها . ومن هنا فان تلك الاكاذيب والشبهات التى يحاول دعاة التقدم والماركسية واليسار وغيرهم اذاعتها لن تؤثر شيئاً فى النفس العربية الاسلامية التى أخذت فى امتلاك ارادتها وعرفت طريقها الصحيح . ولقد كانت هذه المنطقة منذ تسلمها المسلمين امانة فى أيديهم للاديان الثلاث

وقد آمنت كل القوى بأصالتهم وأحقيتهم للقيام بهذا الدور وسوف تعجز الصهيونية عما عجزت عنه الحروب الصليبية من انتزاع القدس من أيدي المسلمين الحماة الامناء .

يقول المؤرخ ريفمان : ان المسلمين لم يقروا بوجود هذه الدولة الاجنبية الدخيلة فى ارض يعتبرونها ملكا لهم . نعم هذا هو الحق ومن الحق ايضا ان المسلمين انتصروا تحت اسم « مدرسة التسلح الخلقي » على كل الخلافات واستطاعوا ان يتجمعوا لمواجهة الخطر وكان دور الشعب الاسلامى اقوى من دور الحكومات . يقول ريفمان : أخذ العرب يتسمون الوجهة بمجرد ادراكم لمغزى قيام الدولة العدوة بينهم غير أن هذا التطور كان بطبيعة غاية البطء . وبقى الصليبيون مدة طويلة وهم قادرون على مهاجمة اي من الاقطار المجاورة لهم ، واستطاع الصليبيون أن يصلوا الى حدود مصر وضواحى دمشق وان يتغلوا في حوران ، غير أن نجاح صلاح الدين فى توحيد مصر وسوريا واليمن تحت حكمه قضى على كل امل للصليبيين فى التوسع ، وبالرغم من الاعداد القادمة من اوروبا فقد بقى الصليبيون معتمدين على العالم المسيحي فى الرجال والمال واستمرروا ما بقى العالم المسيحي يمددهم وذبلا عندهما انتهى هذا الاهتمام .

ونحن نجد أن المواجهة العربية الاسلامية للغزو الصهيونية تسير في طريق أكثر قوة وعمقا بالرغم من بطئها في المراحل الأولى فهى تدخل في مرحلة الحسم والاقتناع الصحيح بالطريق الاصليل للمواجهة : المواجهة بأسلوب الاسلام ، العقيدة والشريعة والتربية الاسلامية والجهاد .

ولن تخدعنا كتابات التلموديين وسموم التقدميين ومراوغة الماركسيين من أن تعرف الحقيقة التي بدأت يوم عمدت الصحافة التي كان يمسك بقيادتها المارونيين اللبنانيين في مهاجمة السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية تمهيداً لفتح طريق الصهيونية إلى القدس ولقد أشارت مؤرخة يهودية منذ وقت مبكر إلى أن دخول اللورد اللبناني لمدينة القدس كان بمثابة الخطوة الأولى لتسليم اليهود إليها (دخلها اللبناني ١٩١٧ وسلمها اليهود ١٩٦٧).

ان الكتب التي صدرت في العام الأخير وخاصة ما كتبه جولدمان تحت عنوان (المأذق الصهيوني) يكشف وتكشف عن مجموعة من الحقائق يجب على العرب والمسلمين أن يعواها تماماً والا يخدعوا ببريق الكلام :

- ١ - ان الصهيونية تقسم نفسها إلى معتدلين ومتطرفين . وتترك لمجموعة المعتدلين أمثال البير برجر وجولدمان وغيرهم من الذين يحاولون أن يضعوا أنفسهم في صف الراغبين إلى تفهم المواقف والاعتدال .
 - ٢ - ان الاحداث الاخيرة قد كشفت عن أن الصهيونية طامعة في تنفيذ برنامجها في التوسيع وأن دعواها في السلام كافية .
 - ٣ - ان ما يعبر عنه سكان اسرائيل لا أهمية له في الحقيقة أزاء المخططات التي يرسمها عتاة الصهيونية وهم لا يعبأون بها .
- ذلك ان الهدف من المخططات كلها هو اقامة امبراطورية الربا بكل وسائل الخداع والغدر وتخدير العرب والحلولة بينهم

ويبين امتلاك ادارة القوة والتآمر على مقدراتهم من الطاقة والثروة والتفوق البشري فهم دعاة تحديد النسل لانقاص عدد العرب والمسلمين تحت شعار الانفجار السكاني وهم أصحاب مشروع السيطرة على موارد النفط وهم من وراء توجيه الاموال العربية وجهة الاستهلاك حتى لا يتمكن العرب من بناء قوتهم الذاتية .

ولا ريب أن (الربا) هو المدخل الحقيقى للسيطرة التلمودية الصهيونية على العالمين الرأسمالى والشيعى ويعتبر المذهب الذى يحتكره اليهود أقوى الاسلحة لاثارة الرأى العام وافساد المجتمعات والقضاء على الضمائر والاديان والقوميات ونظام الاسر وعن طريق المال يسيطر اليهود على الاعلام والفكر فى عديد من بلدان الغرب حيث يملك اليهود البيوت التجارية والاسواق ولهم نفوذ قوى ومؤثر على الصحافة والتليفزيون .

ولقد أشار اليهود في كل وثائقهم الى سيطرتهم على الذهب في العالم وقيامهم بامتلاك مصادر الاقتصاد والمال . وهم أنفسهم أصحاب القوة الرأسمالية والسيطرة الاقتصادية الذين صنعوا الماركسية والاشراكية التي تبدو ظاهراً معارضه للرأسمالية لقد استطاعوا احتواء كل المحاولات التي استهدفت معارضه الرأسمالية وضربوا كل القوى ليضعوا أيديهم على كلا النظمتين اللذين يتظمان العالم توطئة للسيطرة عليه حسبما جاء في بروتوكولات صهيون .

ولقد قصدت الدعوة الماركسية أساساً إلى هدم الدين نفسه ولم تكن قاصرة على معالجة مشكلة عدالة التوزيع . وكان أول مكاسب اليهودية الصهيونية هي هدم المسيحية وادامة السيطرة على

مقدرات الامم كذلك فان قيام نظام ماركسي يعني أول ما يعني وضع جميع مقدرات الامة في يد المجموعة الحاكمة واخراجه من أيدي عشرات الاغنياء والموسرين شريطة أن يكونوا من غير اليهود .

ومعنى هذا أن تسلیم الثروات الى هذه النخبة تمكّنها من أن تفعل في طريق تحقيق الهدف اليهودي أكثر مما يفعل الرأسماليون أنفسهم كذلك فان النظام الماركسي نفسه يحل في العالم روح الشر والقتل والابادة ويحقق هدفه عن طريق الانقلابات التي تقتل وتحطم وليس عن طريق التطور والتدرج والاقناع وقد ظهر أن أغلب أحداث المؤامرات والانقلابات كانت نتاجاً يهودياً يستهدف تحقيق الغاية التي يقصد إليها أصحاب امبراطورية الربا .

كذلك تكشف الكتابات الاخيرة ان وجود اسرائيل لم يحل المسألة اليهودية بل زادها تعقيداً ، قال بذلك البير كامى وميشيل رشيلان ، وقال غيرهم أن الصهيونية هي محاولة ارجاع تاريخ اليهود المعاصر الى الوراء وانه بمثابة نظرية جاهلية لأنها لا تأخذ في الاعتبار العنصر الحاسم للتقدم في التاريخ . ويقول الحاخام منسفيلد : ان الصهيونية انفجار شاذ لعاطفة منحرفة .

ويقول رشيلان : ان اليهودي لن يشعر بالامان في أي مكان في العالم لانه يخلط بين اليهود في العالم وسكان اسرائيل .

ولقد أقامت الصهيونية تأييد الغرب لها على محاولة خادعة لئيمة : وذلك هو فرضها مفاهيم العهد القديم والتلمود على المسيحيين في المدرسة والجامعة بما يوحى بأن دعوة الصهيونية

الى التوسيع فى فلسطين هى من صميم العقيدة الدينية ، وكذلك فعلت الصهيونية فى أمريكا وبريطانيا والمانيا .

ولقد كذبت الواقع التاريخية الصحيحة ما ادعاه اليهود من أن وعد ابراهيم كان لاسرائيل او لاحفاد اسحاق وحدهم ، ذلك أن وعد الله لا براهم كان لاسماعيل واسحاق ولاحفادهم جميعا ، وللصالحين منهم وحدهم .

﴿ وإذا ابلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن * قال اني جاعلك للناس اماماً * قال ومن ذريتي * قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

وكذلك يكذب اليهود فى أن يقتصر وعد على أنفسهم ويعتبرون أنهم شعب الله المختار مع ان وعد كان لكل خلفاء اسماعيل واسحاق وهم العرب والمسلمون وقد تحقق وعد فعلاً لسيطرة الاسلام على هذه المناطق كلها والمسلمون هم أحفاد اسماعيل .

ويتعالى اليوم أصداء هذه المؤامرة الزائفة التي بدأت تنكشف أمام العقل البشري اليوم على نحو أكثر وضوحا مما كانت قبل ثلاثين عاما فيقول المؤلف اليهودي الروسي (افرانيم سيفيلا) في كتابه : (وداعا اسرائيل) : Farewell Israel

ان اسرائيل هى الدولة المنسخ التي تأكل أبنائها .

ويكشف في وضوح زيف الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ويعرى الاساليب الاجرامية التي اتبعها زعماء الصهيونية لإقامة هذا الكيان الزائف ، ولا بتزوير الاموال منها بحججة جمع شمل

اليهود لاجتذاب اليهود من أرجاء العالم بطرق مغربية .

ويقول : انه بعد أن مر ما يربو على ربع قرن منذ انشاء هذه المؤسسة اليهودية فوق جزء من الارض الفلسطينية لم تتحقق تكهنات زعماء الصهيونية بأن تصبح اسرائيل مغناطيساً لليهود العالم ، حيث لم تستطع اسرائيل أن تجمع فوق الارض الفلسطينية سوى خمس اليهود . ففى نيويورك وحدها يعيش عدد من اليهود أكبر مما يوجد فى اسرائيل بأكملها . وفي باريس يوجد من اليهود أكثر مما فى تل أبيب . وفي لندن أكثر مما فى القدس . لقد تبين انه من الصعب لا بل من المستحيل صيغ كافة اليهود بفكرة الصهيونية حيث طلب اليهم استبدال أماكنهم بحياة أقل أمناً فى مناخ حار وغير مألف لهم وبعيدة كل البعد عن حسن الحال الجسمانى والمادى على السواء . على الاسف ان انشاء المؤسسة اليهودية الجديدة لم يكن ليقذف دماً جديداً فى العروق القديمة بل بالعكس حط من مكانة اليهودى فى العالم وعمل بشكل ما سوى على الاصراع فى تذويب اليهود فى القوميات الأخرى . لقد تعرضت الجاليات اليهودية للخراب الكلى بعد قيام دولة اسرائيل .

ولكننا بعد أن لجأنا إلى اسرائيل : الملاذ الأخير لجاليات اليهودية ، ربما كنا قد أنقذنا أنفسنا من الاندماج فى القوميات الأخرى لكننا من ناحية أخرى حكمتنا على أطفالنا وعلى أنفسنا بالانقراض الطبيعي .

لقد بدأت الجاليات اليهودية تنهار الواحدة بعد الأخرى ، وأصبحت صفوفها مبعثرة وهزيلة حدث هذا بسبب الهروب العاجل من اليهودية نحو الاندماج فى الديانات والقوميات الأخرى هرباً من

كافه عوامل الضغط والاضطهاد . ان اكثرا التحليلات سطحية للاحداث منذ عام ١٩٤٧ تؤكد مباشرة هذا الواقع الحتمي . لقد دمرت أكبر الجاليات اليهودية واكثرها ازدهارا وهى التى كانت تعيش فى الاتحاد السوفيتى . لم يظهر التفكك السريع لهذه الجالية وبروز شتااتها وخرابها الا بعد ظهور اسرائيل . وكذلك الامر بشأن الجاليات اليهودية فى الشرق الاوسط وشمال افريقيا الاسلامية كان هناك ما يربو على المليون نسمة من اليهود الذين يعيشون فى العالم العربى فى جاليات كثيفة مزدهرة جنبا الى جنب مع السكان العرب وكانتوا يتمتعون بكل حرية من ناحية الدين والتقاليد اليهودية ، من كل من الدار البيضاء ومراکش وطنجة والرباط والجزائر ووهان وتونس وطرابلس والقاهرة والاسكندرية وبغداد وبيروت ودمشق الى ان جاء عام ١٩٤٧ الذى جعل من العرب وكافة المسلمين بضربة واحدة أعداء لدوين اليهود نتيجة احتلال الارض الفلسطينية ومما زاد الطين بلة تدفق اللاجئين الفلسطينيين هرباً من ميادين الحرب الى البلدان العربية المجاورة الامر الذى زاد من التعصب الوطنى والدينى بين العرب واليهود ، وينطبق الامر نفسه على يهود أوروبا الشرقية الذين لم يتعرضوا للإسلامية سوى بعد انشاء الدولة اليهودية وذلك بعد معاداة أنظمة الحكم الأوروبية الشرقية للصهيونية المتمثلة فى الدولة اليهودية الجديدة وهكذا تعرضت الجاليات اليهودية للخراب الكلى بعد قيام دولة اسرائيل .

ويقول الكاتب فى النهاية : ان اسرائيل محكوم عليها لا تعيش غير عقد آخر من الزمان ومن غير المحتمل أن تتجاوز هذا الحد المقرر واعتقد انه فى عام ١٩٨٥ لن يكون لاسرائيل وجود

على خارطة العالم بل يتم ابتلاعها بلا شفقة .

هذا ما يقوله يهودى منهم اما نحن فنعرف ان اليهود كانوا خادعين لكل الشعوب والامم بما زيفوا من دوائر المعارف العالمية وأدخلوا اليها هذه السموم وقد كانوا أصحاب الاثر الكبير فى تزيف دائرة المعارف الاسلامية) .

وكان لهم دورهم فى السيطرة على دراسات التاريخ ومقارنات الاديان فى مختلف جامعات أوروبا وامريكا حيث بثوا فيها سموهم وشبهاتهم ازاء الاسلام ورسوله وكتابه وتاريخه ولغته .

بل ان الصهيونية العالمية استخدمت منظمات الماسونية والشيوعية والبهائية لنفس الغرض فدخلوا هذه المحافل واستخدموها ، كما سيطروا على منظمات الليونز والروتراري فى العصر الحديث وعن طريقها ينقلون الاخبار والاشاعات ويديعون الاكاذيب فى الامم التى تقوم بها هذه المنظمات .

ويكشف أحد حكماء صهيون : جولدمان زيف هذا الواقع المضلل المنهاج حين يقول : لست أستطيع أن أتصور أن تنتهي آلاف من سنى العذاب والاضطهاد والمقاومة بدولة صغيرة مثل عشرات الدول الأخرى تعيش في خطر وتعرض للابادة مما يفرض عليها البقاء في حالة تعبئة وتسلیح كل شبر من أرضها وتركيز جهودها الرئيسية على الوجود المادى . اننى لست متأكدا من ان حماس وولاء الشعب اليهودي خارج اسرائيل سيظل وفيا لهذه الدولة الى الابد .

وهكذا تبدو روح التشاؤم واضحة على رأس ثلاثة عاما من

قيام هذا الكيان الزائف ويجمع الحكماء على ان وجود اسرائيل لم يحل القضية ولا يمكن ان يدوم كيان الدرة على الغصب والظلم والغدر مهما جرت المحاولات لأن يستمر . وسوف تعود الدرة المغتصبة الى أصحابها ان عاجلاً وان آجلاً .

الباب التاسع

فساد نظرية الجنس السامي واللغة السامية

أبعاد خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية والتلمودية

ما تزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الأعمال الضخمة التي قام بها الاستشراق المسيحي واليهودي والتي لم تكتشف بعد أبعادها الواسعة . وفي كل يوم نجد خيطا جديدا يضاف الى سابقه فتبعدوا الصورة أشد خطرا مما كان متصورا من قبل ، ولا ريب أن المثقفين المسلمين في حاجة الى متابعة الكشف عن هذه الخيوط والأبعاد حتى يعرفوا ما يراد بهم ، ومدى خطة الاحتواء ، ومدى زيف تلك الشبهات والسموم التي أصبحت كال المسلمين ، بينما هي من افتراءات الاسرائيليات الجديدة التي جددت الاسرائيليات القديمة .

ولكى يكون البحث علميا وقائما على أصوله الأصيلة فإنني أضع أمام الباحثين هذه المصادر لنبني عليها الحقائق التي وصلنا إليها :

١ - تاريخ الجنس العربي للأستاذ محمد عزة دروزة .

- ٢ - الاسرائيليات والغزو الفكرى للدكتورة بنت الشاطئ .
- ٣ - محمد رسول الله والذين معه للاستاذ عبد الحميد جودة السحار .
- ٤ - مقدمة كتاب شمس الله على الغرب للدكتور فؤاد حسين على .

ومنطلق البحث انه قبل ابراز فكرة الصهيونية فى العصر الحديث (لمخطط متجدد ومبتعد عن «التوراة» التي كتبها حكماء اليهود ابان السبى البابلى و«التلמוד» التي جاء بعد تدمير الرومان للقدس) . هذا المخطط هو بروتوكولات صهيون التى عرفت لأول مرة عام ١٨٩٧ وفي خلال اعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جباره تعمل على وضع مفهوم الصهيونية التامسودية فى داخل كتب التاريخ والموسوعات العالمية وادخالها فى مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الارساليات فى العالم الاسلامى .

وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطه مجموعة ضخمه من المفكرين الغربيين الذين احتوتهم الصهيونية : (شلوسر ، بروكلمان ، رينان ، دوركاييم ، دوزى ... الخ) .

وذلك بالإضافة الى الاستشراق اليهودي الصهيوني : (مارجليلوث ، جولدسيهر ، برنارد لويس ... الخ) .

وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة أهداف :

أولاً : ابتکار فكرة «السامية» التي نسبت اليها كل أمجاد

التاريخ العربي القديمة وسلبه من أصحابه الحقيقيين وخاصة اسماعيل بن ابراهيم وأبنائه وأحفاده وأضافت هذا كله الى مصدر غامض ليس له سند علمي ويستمد مصدره الأساسي من التوراة التي كتبها اليهود بآيديهم وليس التوراة الحقيقة المنزلة على موسى عليه السلام . وذلك بهدف اشراك اليهود مع العرب في هذه الأمجاد بينما لا يوجد لليهود أي اتصال بإنشاء هذه الحضارة .

ويستتبع هذا الخطر : ايجاد صلة ما بين العربية والعبرية على النحو الذي حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه « تاريخ اللغات السامية » وقاموا بتدريسه في الجامعات وهم : اسرائيل ولفسون ، وشاخت ، ثم الدكتور مراد كامل .

ثانيا : محاولة التشكيك في رحلة ابراهيم عليه السلام الى الحجاز واقامة ابنه اسماعيل وزوجته هاجر بمكة . وهذا يلدو واضحا من تجاهل التوراة لهذه الواقعية التاريخية ومحاولات اثارة الشبهات فيها ، وقد رد الدكتور طه حسين هذا القول في كتابه « في الشعر الجاهلي » .

ثالثا : محاولة اعتبار التوراة مرجعا للبحث العلمي مع أن شهادات كل علماء الغرب تؤكد أن التوراة الموجودة الآن كتبها علماء اليهود . منها ما كتب أيام المملكة الاسرائيلية ومنها ما كتب في المنفى بين النهرين ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون .

رابعا : محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود في الجزيرة العربية وفي الأدب العربي .

خامساً : محاولة ايجاد ترابط بين العرب واليهود والقول بأنهما أبناء عمومة وذلك كله يستهدف التمهيد للدعوة الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

سادساً : اعلاء شأن اسحاق على اسماعيل وهما ابنا ابراهيم عليه السلام ، وأكبرهما اسماعيل الذي هاجر به وأمه الى مكة والذى أقام معه القواعد من البيت الحرام ، والذى امتحن بذبحه وجاءه الوفاء من السماء .

والهدف هو اخراج أبناء اسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربه وقصر الوعد على أبناء اسحاق تحت اسم أسطورة «شعب الله المختار» .

* * *

هذه هي : أهم أطراف المؤامرة الخطيرة لتزيف تاريخ الاسلام والعرب قبل الاسلام لحساب الصهيونية التلمودية : وقد جرى تعليم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم واستكتاب عشرات الكتاب لبحوث متعددة منوعة تدور حول هذه الشبهات لخلق أدلة مضللة لتشتيتها في الأذهان .

وتکاد تكون فكرة «السامية» أخطر هذه الشبهات .

وهي عبارة أو مصطلح لم يرد مطلقاً في كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ ، وقد استمد أساساً من نص من نصوص التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار ، وفي ظل تقسيم وهمى

للاجنس البشرية مستمد من أسماء أبناء آدم أبي البشر : « سام وحام ويافث » .

وقد بُرِزَ هذا المعنى في ظل تقسيم مستحدث ظهر في أوروبا ابان استعلاء نزعـة العنصرية الأوروبية التي قسمت العالم الى ساميين وأرـيين لتضـعـعـ العرب والمسلمـين في قائمة موازـية لـلـجـنسـ الـأـرـيـ صـانـعـ الحـضـارـةـ الـذـيـ وـصـفـ بـكـلـ أـوـصـافـ العـبـقـرـيـةـ وـالـعـظـمـةـ وـالـاستـعـلـاءـ عـلـىـ الـبـشـرـ وـخـصـوـصـ الـأـجـنـاسـ الـأـخـرـىـ الـيـهـ .

وكان هذا التنظير الذي ألبـسـ ثـوـبـ الـعـلـمـ انـماـ يـسـتـهـدـفـ اـعـطـاءـ الاستـعـمـارـ «ـ مـبـرـراـ »ـ عـلـمـياـ لـسـيـطـرـتـهـ عـلـىـ الـأـمـمـ الـمـلـوـنـةـ غـيرـ الـأـرـيـةـ الـأـورـوبـيـةـ .

غـيرـ أنـ الـمـحـاـوـلـةـ الـتـىـ حـاـوـلـتـ أـنـ تـضـعـ عـبـارـةـ «ـ السـامـيـ »ـ وـالـسـامـيـةـ بـدـيـلـاـ لـلـابـراهـيمـيـةـ الـحـنـيفـيـةـ وـلـلـعـربـ وـالـعـرـبـيـةـ كـانـتـ مـحـاـوـلـةـ مـاـكـرـةـ خـطـيـرـةـ اـسـتـهـدـفـ حـجـبـ أـمـجـادـ التـارـيـخـ الـقـدـيـمـ عنـ الـعـربـ وـنـسـبـتـهـاـ إـلـىـ اـسـمـ قـدـيـمـ لـاـ يـعـرـفـ التـارـيـخـ الصـحـيـحـ لـهـ مـصـدـرـاـ وـاضـحاـ .

والغربيـونـ يـعـرـفـونـ أـنـ التـورـاةـ الـتـىـ بـيـنـ أـيـدىـ النـاسـ الـيـومـ ،ـ هـىـ تـورـاةـ مـكـتـوـبـةـ بـأـيـدىـ الـأـحـبـارـ وـأـنـ صـلـتـهـاـ بـالتـورـاةـ الصـحـيـحةـ مشـكـوكـ فـيـهاـ وـلـذـلـكـ فـاـنـ الـاعـتـمـادـ عـلـيـهـاـ فـىـ اـقـامـةـ نـظـرـيـةـ تعـطـىـ كـلـ هـذـاـ الـقـدـرـ مـنـ التـوـسـعـ وـالـنـمـوـ وـالـسـيـطـرـةـ فـىـ دـوـائـرـ الـقـنـافـةـ وـالـعـلـمـ وـالـجـامـعـاتـ هـوـ أـمـرـ لـاـ أـسـاسـ لـهـ مـنـ مـنهـجـ الـعـلـمـ الصـحـيـحـ .ـ وـلـقـدـ كـانـتـ الـيـهـودـيـةـ الصـهـيـونـيـةـ مـنـ وـرـاءـ هـذـهـ نـظـرـيـةـ فـىـ سـبـيلـ طـمـسـ التـارـيـخـ الـعـرـبـيـ السـابـقـ لـلـاسـلـامـ وـتـزـيـفـهـ بـفـرـضـ دـورـ وـهـمـيـ لـلـيـهـودـ فـىـ

الحضارة وفي الجزيرة العربية قبل الاسلام واحياء اللغة العبرية واعطائها رصيدا زائفا من الصلة باللغة العربية هو أكبر بكثير من حجمها الطبيعي .

وفكرة السامية تدور حول القول بأن هناك أصلا واحدا مشتركا للعرب واليهود ومحاولة اعطاء العربية أثرا ومكانة غير صحيحة في حضارات الشرق القديم .

وقد كان « شلوسر » هو أول كاتب غربي استعمل مصطلح السامية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واعتمد في هذه التسمية على نص من التوراة . وقد كانت الصهيونية وراء هذه الفكرة ومن ثم فقد اتسع نطاق هذه المقوله وأقام عليها الكتاب الموالون للصهيونية والاستعمار ما أطلق عليه اسم « علم الأجناس » ولغياب الفكر الاسلامي في هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الاسرائيلية وسيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافة جمعيا .

وفي كلية الآداب بالجامعة المصرية تقررت دراسات اللغات السامية وقام على هذه الدراسات مستشرون يهود : في مقدمتهم يوسف شاخت واسرائيل لوفنسون اللذان أخذوا يخدعون شباب المسلمين والعرب بقولهم أن العربية ليست سوى عبرية مقلوبة ، وأن العرب انما اتخذوا اسمهم من « عربة » التي هي في العبرية بمعنى الصحراء ، وكان الهدف هو خلق مفهوم زائف للصلة بين العرب واليهود من ناحية و بإعطاء اليهود مكانا زائفا في مجال الآداب والعلوم .

ومن ذلك القول بأن اليهود هم الذين وضعوا شريعة

حمورابى ابن نفيهم فى بابل وكل وثائق التاريخ تكذب ذلك وتثبت أن اليهود ابن المنفى كانوا يبحشون فى حضارات الأمم عن خيوط يضمونها الى نسيجهم المهلل ليتمكنوا من القول بأن لهم فلسفة معينة ، وقد كانت فلسفتهم ومنهجهم الفكرى جماع الفلسفة البابلية القديمة والهيلينية ، ومدرسة الأفلاطونية المحدثة وبقايا المحسوسية والغنوصية الشرقية وذلك بعد أن فقدوا أصلهم الأصيل وهو توراة موسى . كذلك فقد كان هدف هذه المحاولات هو القول بأن اليهود والعرب أبناء عمومة تربطهم أواصر الرحم والقربى وتاريخ اليهود بعد الاسلام في المدينة يكشف عن هذه الرحم والقربى في محاولاتهم وجراحتهم وغدرهم ، الذي امتد طوال تاريخهم . ولقد حاول دوزى ومرجليوث ادعاء هذه الصلات واحتلاق مشابه بين قريش واليهود ، والقول بأن موطن اليهود هو بلاد اليمن اعتمادا على ألفاظ ملتقطة من لغة سبا البائدة تشبه الفاظا عبرية .

ولقد اتسع نطاق هذه الكتابات في الفكر الغربي في هذه الفترة المبكرة تمهدًا للفكرة الصهيونية وإن كان بعض العلماء الغربيين لم تخدعهم هذه التلقيقات فكشف زيفها أمثال : جوستاف لوبيون الذي قال : « لا جرم أن الشبه قليل بين العربي أيام حضارته واليهودي الذي عرف منذ قرون بالفاقد والبخل والجبن وإن من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي ، ولا ننسى أن طرق الحياة الخاصة التي خضع اليهود لحكمها منذ قرون كثيرة هي التي أنسأت فيهم عرفا ذليلاً غير محترم ، وعندى أن كل أمة تكون عرضة لمثل ما أصاب اليهود ولا يعرف عمل لها غير التجارة والربا وتحتقر في كل مكان تنتقل إليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة مدة

عشرين قرناً وأكثر فتتأصل فيها وتصير الى ما صار اليه اليهود لا محالة » .

ولقد كانت مؤامرة « السامية » هذه موضع نظر الباحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل ، فلم تفتهن تلك الخطة الماكراة التي استهدفت اعتبارها منهاجاً من مناهج الدراسة الجامعية واعطاء شبهاها صيغة المسلمين .

وقد جاء ذلك في الوقت الذي حمل فيه الدكتور طه حسين لواء الدعوة إلى تجديد دراسة الأدب وفق المناهج الحديثة والبحث في الشعر الجاهلي فقد كان الهدف من ذلك هو القول بأن اللغة العربية لم تكن لغة واحدة في الجزيرة العربية وأن هناك لغة في الجنوب ولغة في الشمال وهي محاولة مضللة تستهدف التشكيك في وحدة اللغة العربية ، قبل الاسلام واثارة الشبهات حول نموها واتجاهها إلى اتخاذ مكانها الذي أهلها لتكون لغة القرآن ولسان الاسلام .

كذلك فان الدكتور طه حسين قد هيأ لشاب يهودي استقدمه من فرنسا لاعداد دراستين : احداهما عن اليهود في جزيرة العرب والأخرى عن تاريخ اللغات السامية ليحشد فيما كل تلك المخطوطات التي أعدتها الصهيونية لتزييف التاريخ الاسلامى ، وقد قدمت احدى هذه الدراسات على أنها اطروحة دكتوراه قدمها « اسرائيل ولفسون » وكان ذلك مقدمة لتكون هذه السموم « مسلمات » تدرس في الجامعات المصرية والعربية وما تزال .

وبذلك استطاعت الصهيونية العالمية أن تدخل نظريتها الى

قلب الفكر الاسلامي والأدب العربي لتضرب به ذلك المفهوم الأصيل الذي عرفه المسلمون واستوعبته آثارهم وتراثهم .

كذلك فقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول اقناع المسلمين والعرب بأن لليهود فضلا على أدبهم وتاريخهم وتراثهم ، فهو يعرض لليهود واليهودية كلما عرض للغة العربية وأدبها .

ولقد عمل باكرا لتحقيق هذا الهدف حين أعلن بأن وجود ابراهيم واسماعيل لا تثبته المصادر العلمية والتاريخية وأنكر أن ورود اسمهما في القرآن يعد سندًا صحيحًا ، ومن العجب أن تتخذ نظرية السامية هذا الاتساع والشهرة والاستمرار وهي تعتمد على نص من التوراة التي كتبها أخبار اليهود ويقرها طه حسين على ذلك ولكنه لا يقر القرآن على وجود ابراهيم واسماعيل والقرآن هو النص الموثق الذي نزل من السماء والذي لم يصبه أي تحريف .

كذلك فقد تحدث الدكتور طه عما أسماه أثر اليهود في الحياة العربية والأدب العربي (ومحاضراته متعددة في هذا الصدد وأهمها محاضرته التي سجلتها له مجلة الجامعة المصرية في عددها الأول في سنتها الثالثة ١٩٢٥) والتي خلص منها إلى ثلاثة نتائج خطيرة من أثر اليهود :

أولاً : ان اليهود أثروا في الأدب العربي أثراً كبيراً جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

ثانياً : أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضاء عليهم مؤلفو العرب .

ثالثا : أن اليهود اتحلوا شرعا لاثبات سابقتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وفي مقدمة كتاب اسرائيل ولفسون (الذي يشرف الآن على البعث الاسرائيلية في أفريقيا) يقول الدكتور طه حسين :

« ليس من شك أن المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحالـت من المحاجة والمحاولة إلى حرب بالسيف انتهـت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية » ويعلن الدكتور طه اغباطه إلى أن اسرائيل ولفسون : « قد وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل » ولكن هل هذه هي الحقيقة ، ان الدكتور فؤاد حسين على أكبر المتخصصين في مصر في اللغة العربية وتاريخ اليهود يقول : ان هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيوني بإشراف « مارتن بوير » تدعو إلى نشرها ، وما نقله اسرائيل ولفسون في رسالته من آراء كان القصد منه اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء في المصادر الأجنبية . وان هذه الرسالة - التي ما زالت في أيدي المثقفين والباحثين - مشحونة بالأخطاء ، وهى بعيدة عن المراجع العربية التي أشير إليها ، وان الدكتور طه حسين لا يعرف العربية وقد أخذ بالنتائج التي وصل إليها الباحث دون التحقق منها ببعض الذين يجيئون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا . ذلك أن البحث العلمي يجب ألا يصبح بصبغة القومية المتعصبة كما لا يتخد وسيلة

من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادي الرخيص » .

ولا ريب أن هذا مقتل من مقاتل طه حسين الكثيرة التي غابت عن صديقنا الدكتور محمد رجب البيومى .

والى قيمة تراث اليهود وصلته بالتراث الاسلامى يقول الدكتور فؤاد حسنين : « فى مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا وفي بابل وأشور شريعة حمورابى وفيها الشيء الكبير من هذا التراث الذى نقله واضعوا سفر التثنية ولما عاد اليهود من السبى نقلوا معهم عن العرب البابليين الشيء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس وعند المعينيين السبئيين العمارة وهندسة الرى والتجارة . قصة ملکة سبا والدور الذى تلعبه فى تاريخ الاسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد .

ويشير الدكتور فؤاد حسنين الى آثار اليهودية والمسيحية والاسلام : وما استتبعه ذلك من تفتق العقل البشري فأنتاج أدبا وشاعرا ونثرا وقصصا وفلسفه وحكما وأمثالا . وكان من نتائج هذه الشورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض أبنائها شعوب العالم القديم من شرقين وغربين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التى جاءت بالمعجزات ، فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود الى حياة أفضل مكتته من الحكم فى مصائر الكون فأطلق العرب الأفكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر هؤلاء التلمود وتعاليمه كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور وقد مهد هذا التطور بدوره الى ظهور حركة الاصلاح الدينى

ويعث النهضة العلمية . وكما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التي أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملاً من عوامل التفرقة والتمييز العنصري والحط من القيم الإنسانية . والدين الإسلامي هو الذي ثبت مبادئ الحقوق الإنسانية ولذلك نجح العربي في تحقيق ما عجز عنه اليوناني والفلسفة اليونانية .

ومذهب الإنسانية لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب ولم تعرفه أوروبا إلا في العصور الوسطى ، وعلى يد العرب وبعد أن تللمذت أوروبا على العرب في العصر الإسلامي » ويصل الدكتور فؤاد حسين إلى القول بأن الحانقين على العرب والإسلام والناسبيين التراث العربي إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح والعرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود . والتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين أو فزوا عن اضطهاد اليونان والرومان ، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وسهلاً ، فهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل يشرب وخبير ووادي القرى ، وقد أفرادها على العرب بعد أن فقدتهم القرون التي مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العربية وتتجديدها حتى أصبح من المأثور لدى اليهودي أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلDaniyah واليونانية ، فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عربية ، مما كان أولئك اليهود بمستطاعين قول الشعر أو إجاده التثر ، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربي

معجب بلغته معنى بها نشرا وشعرًا حريصا على المحافظة عليها
فصيحة نقية .

أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح
وفصاحة التعبير فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريةطة وبهود خير
ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون
لغة عربية ويتأدبون بأدب عربى ويتبعون بطبعاً عربية ، كلها
شجاعة ووفاء وكرم واباء ، يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون
عن خواطرهم ، في لغة هي لغة أهل الحجاز ، نزل أولئك اليهود
في أوطنهم الجديد فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً ولم يمض
نصف قرن من الزمان على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق
وغيرهما حتى أصبح في استطاعتهم التعبير بالعربية .

وقد حب إلى اليهود ظاهرة المحافظة على عربية القرآن
ال الكريم فاقتضوا أثر العرب فيها فحاولوا الحرص على نطق أسفار
العهد القديم نطقاً صحيحاً وتأثر اليهود بالعرب أيضاً فأوجدوا ما
يعرف في الأدب العربي بالشعر العبرى الحديث فهذا الفن صورة
من الشعر العربي وزناً وقافية ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه
إلى النثر وكذلك الأمثال العربية ولقد فتح العرب أمام اليهود دور
العلم على مصاريعها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم ولذلك استطاع
اليهود القيام بدور الرواة من الشعر إذ انسابوا في بعض البلاد
المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوروبيين
ما انتهت إليه معرفتهم .

ويحدثنا التاريخ اليهودي أن الإسلام أحسن معاملة اليهود
حتى أولئك الذين اضطر النبي والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن

قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام واتباعه أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والأمام على كرم الله وجهه الأرضى الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودى «جريتز» إلى الاشادة بعذالة العرب وانسانيتهم فى كتابه تاريخ اليهود ، فقال :

« ان تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وابان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي » وقال : « لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين - وهذه هي العدالة - أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي عام ٦٤٠ م حقارب ضارة نافعة . ان سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها » .

وإذا تركنا الخلال العربية الاجتماعية جانباً : هذه الخلال التي بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتي جعلتهم أهلاً ليكونوا رسول حضارة وثقافة للناس كافة ، وقابلنا بين الإسلام وتعاليمه وبين اليهودية أدركنا الفرق الشاسع اجتماعياً وعقائدياً بين الملتدين ، لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلاً تفضل الالتجاء إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للفصل في قضايا الأحوال الشخصية . وقد هدد هذا الوضع الجديد المجتمع اليهودي بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه مجازة للشريعة الإسلامية ، لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة في قدسيته وصحة ما جاء فيه وبخاصة تلك الأحكام التي لا تستند إلى نص قوي في الكتاب المقدس .

يقول الدكتور حسين : « هذه بعض حسنات العرب على

اليهود ، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطون خليطا لا شرقيا ولا غربيا . والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوي ورفعوا مستوىهم الأدبي فمكتنوه من خلق ملكة أدبية ثالثا وليس أحاجرا احتدى اليهود حدو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا في وضع نحو لغتهم صيانة لها من اللحن والضياع ، هذه هي الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور اسرائيل ولفسون » .

ونقول : هذا هو سر الحقد الشديد الذي تبنته الصهيونية العالمية للعرب وللغة العربية فتعمل على محو ذلك التاريخ الطويل ورفع اسم العرب عنه ونسبته إلى رمز مضلل هو « السامية » فينقل ذلك التاريخ الراخر من مصدره الأصيل إلى مصدر غامض يقوم على نص من التوراة التي كتبها احبار اليهود والتي لا ترقى إلى مستوى الحقائق الثابتة التي قدمها القرآن الكريم الذي لم يصبه أى تحرير .

ان الهدف هو طمس الرابطة بين الاسلام الذى جاء به محمد ابن عبد الله رسول الله فى القرن السادس الميلادى وبين دعوة ابراهيم التى بدأت منذ عام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، ذلك أن اقامة ابراهيم ابنه اسماعيل فى قلب الجزيرة العربية فى مكة ، واسماعيل هو جد العرب وجد محمد صلى الله عليه وسلم وبناء البيت الحرام الكعبة ، ودعوة الله سبحانه وتعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم الى اتباع ملة ابراهيم ﴿ واوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا ﴾ كل هذا مما يريد اليهود والصهيونية طمسه وتزييفه ، وقد أثبتت الاحاديث التي كشف عنها اخيرا ان ابراهيم عليه السلام كان يتكلم

العربية وان لم تكن العربية التى نزل بها القرآن أو التى نتكلمتها اليوم ، كما أثبتت الأحافير أن اللغة التى كانت مستعملة فى اليمن وال العراق والشام والجهاز لغة واحدة وان اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية فى هذه الأيام . وقد استشهد عبد الحميد السحار الذى أورد هذا فى كتابه (محمد رسول الله والذين معه) بالآلية الكريمة : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس » .

وقد جاء فى كتاب العلامة « البرايت » : عن احافير فلسطين قوله : « تتقرب اللغات العربية القديمة عدا الأكادية فى الأجرامية والنطق بحيث تشتراك كل لهجة وماجاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والגרמנية » .

والملحوظ أن التوراة لم تورد ذكر ذهب ابراهيم عليه السلام الى الجهاز وسكتت هذه المصادر سكتوتا متعمدا عن علاقة ابراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، بل وسكتت ايضا عن ذكر هود وصالح من ابناء العرب كأنما لم تكن عاد وثمود على مقربة من فلسطين . وقد حدد بطليموس فى اطلسه موقع ثمود وعاد وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وعشر على بعض الخطوط الشمودية فى ثمود وفي الطائف . وقد كان اليهود ينفسون على العرب أن صار لهم بيت محرم منذ أيام ابراهيم بينما لم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس الا فى أيام سليمان بن داود فكان هذا السكتوت المتعمد .

وقد عمد اليهود الى طمس حقيقة وعد الله تبارك وتعالى

لابراهيم فجعلوه قاصرا على اسحاق ولذلك تجاهلوه ابنه الأكبر اسماعيل وحاولوا اخراجه واخراج ابنائه من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربها وابتكرروا الاكذوبة التى تقول أن بنى اسرائيل وحدهم هم شعب الله المختار . يقول الأستاذ السحار : « حرم اليهود أبناء اسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من ربها ، وأرادوا أن يسلبوا اسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو اسحاق ، مع أن التقاليد تقضى بتقديم الابن الأكبر قربانا لله » .

ولا ريب أن انكار اسماعيل وأبنائه يحرف تاريخ العرب قبل الاسلام تحرifa شديدا فان أبناء اسماعيل الاثنى عشر قد انشوا فى هذه المنطقة .

وقد أعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل ونيوى وبالاد ما بين النهرين ان بنى اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وان أبناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل واشور ومصر والاغريق والرومان .

والواقع ان تاريخ هذه المنطقة منذ عهد ابراهيم عليه السلام (١٧٥٠ قبل الميلاد) هو تاريخ العرب الذين كانت تطلقهم الجزيرة العربية فى موجات مهاجرة امتدت من حدود الفرات الى المغرب وشملت هذه المنطقة كلها وان فكرة السامية الزائفة لم تكن شيئا معروفا او مقررا ولا توجد اي اشارة اليها فى اي من الكتب او الحفريات او الأسانييد المكتوبة على الاعمدة او الاثار القديمة .

يقول العلامة محمد عزة دروزة : « لقد أصبح أمر انسياح

الموجات من جزيرة العرب الى الاقطار المجاورة لها منذ اقدم الأزمنة وكون الكلد والاشور والاكيدين في العراق والكنعانيين والعمور والأراميين والعبرانيين في جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادى النيل شماله وجنوبه ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هؤلاء المنساجين في القرون التاريخية من الحقائق التي لا تتحتمل جدلا ولا سيما ان جزيرة العرب ظلت ترسل بمجوتها الى هذه الاقطار بدون انقطاع قبل دورعروبة الصريحة ، أى قبل أن تغدو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب اسما لهم ، ثم في دور العروبة الصريحة قبل الاسلام ، ثم منذ الاسلام الى اليوم مما سجلت أحداها القديمة نقوش المصريين وال Assyrians والكلدان وكتب اليونان والرومان القديمة وما قرره علماء الآثار والتاريخ » .

ومن خلال بحثه الواسع نصل الى الحقائق الآتية :

أولاً : ان جزيرة العرب أخذت تسمى باسمعروبة الصريحة في كتب اليونان والرومان واسفار العهد القديم منذ (الفين وخمسمائة سنة) واسم العرب الصريح اخذ يطلق على أهلها المستعربين في داخلها وتخومها الشمالية جزئيا ثم كليا منذ الفين وخمسمائة سنة كذلك بل قبل ذلك مما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة وللغة العربية التي تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك هي اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلا أو كثيرا عن اللغة الفصحى ، على ما تدل عليه آثار وأسماء واعلام ونقوش السبيئين والحجرىين والنبطين والتدمريين واللحيانين والشمودين والصفويين العائدة الى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل

الميلاد الى القرن الخامس بعده وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطويرها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحي قبل البعثة المحمدية بأمد ما .

ثانياً : ان هناك نصوصاً قاطعة بأن اللغة العربية هي اللسان الاول : وهي لسان آدم عليه السلام الا انها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها فظهرت منها السريانية ثم سائر اللغات : وفي المزهر (ج ٢٠١) ان اللسان الاول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً الى أن بعد العهد وطال فحرف وصار سريانياً وهو يشكل اللسان العربي الا انه محرف .

وقد ثبتت القرابة بين العربية والسريانية ، فقال المسعودي في كتابه الشبيه (ص ٦٨) : وإنما تختلف لغات هذه الشعوب (أى شعوب الجزيرة العربية) عن السريانيين اختلافاً يسيراً . وأكد المرحوم أحمد كمال باشا في قاموسه الذي أعده للمقارنة بين اللغة الفرعونية واللغة العربية أن ثلاثة أرباعها تمت إلى العربية بصلة .

ويقول الأستاذ دروزة أن علماء العربية أخذوا نظريتهم في القرابة بين العربية والسريانية من أهل الكتاب فقد كانت السريانية هي لغة الثقافة والمثقفين ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب في جزيرة العرب في ذلك العهد .

ثالثاً : مما وجد في الحفريات ما كتب على قبر امرئ القيس (٣٢٨ بعد الميلاد) عبارة : (ملك العرب كلهم) مما يسوغ ان كلمة العرب كانت معروفة في ذلك الوقت وتطلق على العرب الصراخاء ، وأن التسمية العربية كانت تطلق أولاً على بعض

أجزاء من الجزيرة وتخومها وقبائلها وملوکها قبل ذلك بعده قرون .

وترجع كلمات (ارابا وعربانا ، وعربا وعربي) الى مدونات قديمة في القرن التاسع قبل الميلاد المسيحي وان اقدم اثر عربى هو أثر الملك الأشوري (٨٦٠ - ٨٢٥) قبل الميلاد .

وقد اضاف الى هذا الاستاذ عبد الحميد السحار : ان الحفريات أكدت : أن حضارة بابل عربية ، وحضارة العموريين عربية ، وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف انها حضارات عربية خالصة : ولكن بعض العلماء ارادوا ان ينسبوها الى جد أعلى حتى لا يلقوا أصوات على مجد اقوام نافسوا بنى اسرائيل منذ أيام خليل الرحمن ابراهيم فأطلق العالم سلوتيisser اسم (السامية) نسبة الى سام بن نوح وصادف ذلك هوى في نفوس الآخرين فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية ويتبعهم الكتاب العرب .

والمعروف ان سيدنا ابراهيم قد اقام القواعد من البيت وابنه اسماعيل عام ١٧٠٠ قبل الميلاد وتلك هي أولى خطوات هذه الأمة الحقيقة ومن ثم فان أصلح اسم لها هو « العروبة الحنيفة » هذه الامة التي امتدت حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم فأكمل لها الدين .

ونصل من هذا كله الى عدة حقائق :

اولا : ان اليهود لم يكن لهم دور صريح او وضع صريح او اثر صريح في اي نهضة من نهضات هذا التاريخ الطويل ، وانهم

زيفوا تاریخهم وتاریخ العرب وعمدوا الى حجب اسماعیل حتى
يقصروا الوعد على أبناء اسحاق .

ثانيا : ان هذه الجزيرة العربية منذ بعثة ابراهيم عليه السلام
ونشأة اسماعیل عليه السلام وبناء الكعبه وهى عربية وللغة العربية
ولغة الموجات المهاجرة المتصلة التي شملت كل البلاد العربية من
بعد ، والتى كانت قبل الاسلام عربية وموحدة لأنها كانت تعرف
دين ابراهيم (الحنيفية) .

ثالثا : ان احقاد الصهيونية العالمية هي التي حرضت
المستشرقين وكتاب الغرب على تغيير هذا الاسم وانكاره واصطناع
اسم آخر اقدم منه ولا صلة له بهذا التاريخ فضلا عن ان مصدره
ليس سليما ولا موثقا وهو التوراة التي كتبها الاخبار بآيديهم وليس
من عند الله .

رابعا : استهدف اليهود ان يجمعوا بين العرب واليهود فى
كيان تاريخي زائف ، كما أن يجمعوا بين العبرية والعربية فى ترابط
وهمى غير صحيح محرفين بذلك حقائق التاريخ الأصيلة .

خامسا : ان كلمة (السامية) هو تعبير اصطمعه اليهود
ليحصلوا من عمومه دورا لهم أكثر وضوحا من دور العرب أصحاب
الشأن الحقيقي ، وأن يجعلوا منه تکأة لمعارضة خصومهم باسم
معاداة السامية .

سادسا : ان السامية احدى شبّهات الاستشراق اليهودي
والغزو الفكري ، وتتجدد دعاوى « الاسرائيليات القديمة » .

* * *

الباب العاشر

الانقطاع الحضارى

تجرى محاولة خطيرة ترمى الى ردة العالم الاسلامى الى
كيان وهمى قديم ، واعطائه صفة الاستمرار التاريخى تحت اسم :
حضارة السبعة آلاف سنة الفرعونية والفينيقية والفارسية والهندية
وتجرى محاولة لاحياء هذه الحضارات القديمة .

والحق أن هذه الدعوة تتجاوز حقيقة تاريخية أكدتها
المؤرخون المنصفون ، وهى أن الاسلام بظهوره وانتشاره قد قطع
العلاقة بين الأمة الاسلامية وبين هذا التاريخ الوثنى القديم ، وكل
ما يتصل به من لغات وأديان وحضاريات . ولقد قرر الباحثون
الثبات بأن الاسلام كان عامل التصحح الحضارى مع هذه
الحضارات القديمة ، وبين الأمة التى دخلت بعد ذلك فى
الاسلام .

* * *

استمرار الحنيفية :

والواقع أن الاستمارية الموهومة التى يحاولون جمع خيوطها

ليست هي استمرارية الفرعونية أو الفينيقية أو غيرها وإنما هي استمرارية (الحنفية الابراهيمية) التي بدأت بها الدعوة الى التوحيد ، والتي كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتما لها ، وانقطاعية عما سواها ، هذه الانقطاعية الواضحة في تاريخ البلاد العربية كلها منذ جاء الاسلام ، وبعد ألف سنة من اليونانية والرومانية الوثنية .

لقد كان الاسلام هو الخط الفاصل الحاسم في تاريخ الانسانية ، فقد قطع الامتداد الفكرى والاجتماعى والثقافى بين ما قبل الاسلام وما بعده ، قطعه عن العرب اولا ثم في كل مكان ذهب اليه ، وقد ذهب الاسلام الى كل مكان واثر في جميع النحل والاقطار . قطع امتداد الوثنية في العالم كله من ناحية العقائد والمملل ، وقطع امتداد العبودية في العالم كله من ناحية الحضارات والامم . فقضى على استرقاق العبيد في حضارات البراهيمية والفرس والفراعنة والرومان . وقضى على قيصر وكسرى جميما .

ماذا تعنى العودة :

وبعد ، فماذا تعنى العودة الى ما قبل الاسلام : هل هي ممكنة ؟؟ وما هو مفهومها ؟؟

ان الباحثين الذين حملوا لواء الدعوة الى الفرعونية او الفينيقية او غيرهما ، لم يجدوا أى خيوط يمكن أن تشكل تراثا او لغة او ثقافة او « فكرا » كما يقولون .

بل تبين لهم أن كل الحضارات البابلية والاشورية وغيرها هي حضارات عربية حنيفة الاصل ، وقد كشفت الابحاث عن زيف

ادعاء ما حاوله التغريب والاستشراف بالتفرقة بين الفراعنة والعرب ، أو الفينيقيين والعرب . وذلك في سبيل تمزيق المسلمين إلى أمم وعناصر ، وكشفت الابحاث الجادة عن زيف هذه الادعاءات ، وتعين أن المصريين الاولين وفدوا من بلاد العرب وعبروا البحر الاحمر ، ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا إلى أن هبطوا وادى النيل ، واسسوا دولتهم . وقد أحصى المرحوم الاثري الكبير أحمد كمال باشا ما يزيد على خمسة آلاف كلمة متصلة الجذور بين العربية والفرعونية .

وما يقال عن الفراعنة يقال عن الاشوريين والبابليين والفينيقيين ، فهم جمِيعاً موجات خرجت من الجزيرة العربية وانساقت في هذه المنطقة الممتدة من العراق إلى الشام إلى مصر إلى افريقيا ، وإن هذه الموجات توالت في خلال فترات طويلة من القرون المتواترة قبل الاسلام ، وكانت ممهلة الموجة الاسلامية الضخمة التي حملت لواء الاسلام والتي وجدت - عندما تمددت - جذوراً لها في هذه المنطقة .

الاسلام حول مجرى التاريخ :

أما الانقطاع التاريخي بين ما قبل الاسلام وبين عصر الاسلام فأن أمره واضح ويعرف به حتى من هو أشد المؤرخين الاوربيين تعصباً فان (هنري بيرين) مؤلف كتاب (محمد - صلى الله عليه وسلم - وشارلمان) يقرر : « ان الاسلام هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الاوربي ، وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة ، ثمرتان من ثمار الاسلام ، وأن ما يقال من أن سقوط الامبراطورية الرومانية هو العامل المؤدي إلى هذا التحول في

التاريخ هو قول خاطئٍ فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن، وضيق الحياة ، إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبيد إلى السادة . فما كان يخطر لها - بل ما كانت ترغب أبداً - في أن تناوىء روما وتقضى عليها » .

أما المسلمين فكأنوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أساليب الحياة ، ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تربيتهم ، فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سلطوهم وسيادتهم وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة ، وظللت حضارتها باقية ، بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقرروا في نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسي من روما إلى بيزنطة « القسطنطينية » وأصاب حياتها العقلية والمادية شيء من الركود والفساد .

ولكن لم تكدر تهب (رياح الإسلام) وتسير ركابه إلى أراضي اليونان ، حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والأثار ، وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة ، حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب والغرب « بعد فتح الاندلس ». فاضطررت ملوكها إلى أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوروبا حيث قامت المعارك التي كتبت تاريخ أوروبا في العصر الوسيط وابان العصر الحديث .

أما الجزء الجنوبي من أوروبا فلم تقع فيه - في تلك العهود - معارك الا معركة (بواتيه) التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس بالخيانة والغدر لا بالقوة والباس .

فلولا ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة ، وإن

انتقل مركزها من الغرب الى الشرق ، ولظل البحر الابيض المتوسط بحراً رومانيا - بل قد سمي فترة بحر الروم - ولما قامت الثورات القومية التي خلقت أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التي تم خضب عنها الحضارة الراهنة .

وهكذا نجد أن الاسلام قد غير العالم كله .

* * *

صفحة جديدة :

لقد فتح الاسلام - حين جاء - صفحة للبشرية ، من حيث « عالمية » الرسالة وخلودها ، ودعا الامم القائمة الى الدخول في دين الله : لانه هو الدين الحق ، بعد أن زيف رؤساء الاديان مفهوم التوحيد ، ولقد أعلن الاسلام وحدة الدين ، ووحدة البشرية ، والتوحيد الخاص ، فحطم الوثنية والاصنام ، وعبادة غير الله ، وقدم للبشرية منهج الاخاء الانسانى ، فقضى على العبودية الفرعونية والقيصرية ، ودعا المسلمين الى النظر في الكون فأنشأ (المنهج العلمي التجريبي) الذي هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم ، ولقد استطاع الاسلام لانه الفطرة والحق ، وضياء النفس البشرية الأصيل ، أن يزحف في خلال قرن ولا يزيد ، حتى سيطر على ثلات قارات آسيا وافريقيا وأوربا : من الصين الى حدود نهر اللوار في قلب فرنسا ، وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق ، وتغلب على اللغات والاديان ، ونقل العالم كله الى نور التوحيد ، ونفذ بأشعته الى قلب أوربا ، فحررها من الوثنية والرهبانية والمادية ، وأدخلتها الى عصر النهضة . وبذلك كان الاسلام هو العامل الاكبر الذي أدخل العالم كله الى العصر الحديث .

وعبر الاسلام الشاطئ الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط فادخله في السلم كافة ، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو آسيا فأخرجت القبائل التركية فيما وراء النهر من الوثنية . وواصلت زحفها إلى الصين ، وفي الغرب اقتحم الاسلام الاندلس ، ووصل إلى نهر اللوار ثم لم يلبث أن اقتحم أوروبا من البلقان حتى وصل إلى أسوارينا . بل تعداها إلى جبال الصرب والكرد .

ودخل الناس في دين الله أفواجا :

من هذا كله نجد أن الاسلام كان عامل انقطاع حضاري عميق المدى بين حضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود . وبعد ألف سنة عاشتها هذه المنطقة بين يدي اليونان والرومان . اندماج فيها الاسلام ، ولم تثبت بعد عقود قليلة من الزمان ، أن تحولت إلى رسالة التوحيد فنسخت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة وأقبلت على الاسلام اقبالا تاما ، ومع أن الاسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه ، وإنما أقام حكمه العادل ، وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة في حياتهم الدينية ، وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل في مختلف المجالات في سماحة ورحمة ، غير أن الطوائف العربية الداخلة في هذه البلاد سرعان ما انصهرت في البيئات التي عاشت فيها ، ولم تستعمل عليها استعلاء سلطان أو استعمار ، وإنما تآخت معها وأصهرت إليها ، ومن ثم فقد دخل الناس في دين الله أفواجا ، عندما تبينوا أن ذلك الحكم السمح العادل الذي حررهم من مظالم الرومان ، هو من عند الله ، لذلك فقد دخلوا في الاسلام الذي كانت جذوره موجودة في أعماقهم وضمائرهم منذ رسالة الحنيفية الابراهيمية ، التي

جدها محمد صلى الله عليه وسلم ، واتصل بها بعد أن انحرفت .. في مرحلة ما بينهما ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ﴾ النحل : ٢٣ .

ومن هنا فان الانقطاع ليس الا عن المرحلة القصيرة التي تعثر فيها طريق الحنيفية الى العنصرية ، وكان هذا أمراً طبيعياً في التاريخ فمصر العربية قد انقطعت عن مصر الفرعونية انفصلاً تماماً ، لأن مرحلة الفرعونية انحرفت عن الابراهيمية ، وكذلك فان سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية ، والعراق العربي قد انفصل عن العراق الاشوري والبابلاني ، وبالاسلام عادت سيرتها الاولى الى الربط بين الحنيفية الابراهيمية والحنيفية المحمدية .

* * *

الجرى ضد تيار التاريخ :

وحيث جرت المحاولات في العصر الحديث لاعادة البلاد العربية الى تاريخها قبل الاسلام باحياء الفرعونية والفينيقية والاشورية ، فشلت هذه المحاولات فشلاً ذريعاً ، لأنها كانت تجري ضد تيار التاريخ .

ويصور هذا المعنى العلامة علال الفاسي حين يقول : « ان العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن الا تمهد لابلاغ الانسان رشده عن طريق اكمال الدين ، بوجود محمد خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بداعاً من الرسل ، فقد سبقته نبوات ورسالات ، كما سبقته دعوات ربانية تشمل كل بقاع العالم ،

ولكنها لم توقف الى البقاء ، وأصابها الانحراف الذى يستوجب أن تجدد وتصلح ثم افتحت آفاق التقدم الانساني فكان لابد أن يبعث الله الرسول الخاتم . وكانت مهمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يضع الناس فى جو الرشد المبني على العقل والروح ، على القلب والجسم ، ومن هنا فان كل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هي وجود الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يصبح الماضى وكأنه ما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامى ، والبشرية كلها مخاطبة لتسير وفق ما ترشد الى ناموس الكون وما بني عليه هذا المجتمع .

هذه هي قصة الاستمرارية والانقطاع فى تاريخ العربية الاسلامية ، انقطاعية ألف سنة عن اليونان والرومان والوثنية ، والحقيقة أن الاستمرارية هي استمرارية دين ابراهيم أبي الانبياء . وانقطاعية كل ما سواه من محاولات عنصرية وقبلية وعرقية وقومية . حاولت أن تخرج بالرسالة الخالدة عن هدفها الاصيل وغايتها الكبرى .

ولذلك فليست هناك استمرارية فرعونية ، أو بابلية ، أو أشورية ، أو فيينيقية وإنما هناك استمرارية التوحيد الخالص وميراث ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وكلها على طريق الله الحق .

* * *

وذابت الاعراق :

لقد ذابت كل القوى التى حاولت أن تسيطر على المنطقة

الحنيفية الابراهيمية ، لقد ذهبت العنصرية وبقيت العقيدة الخالصة ، وانصهرت القبلية والعرقية كلها في دعوة الله الخالصة . وأن الوحدة التي التقى عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها هي وحدة العقيدة والفكر والتوحيد الخالص ولغة القرآن . ولقد انهزمت كل عوامل العنصرية والعرقية أمام قوة العقيدة والفكر ، التي غلت على فكرة الدم والنسب . وغلبت لغة القرآن على كل اللغات القديمة . حتى اضطر النصارى إلى ترجمة أناجيلهم إلى اللغة العربية بعد أن ماتت القبطية والسريانية والأرامية التي كان المسيح عليه السلام يتحدث بها إلى معاصريه .

ان الارتباط بين الحنفية الابراهيمية والرسالة المحمدية هو التصحح السليم للاستمرارية . بل هو التفسير الأصيل للترابط الأكيد الجامع بين عصور هذه المنطقة وأجزائها الجغرافية والتاريخية ، وهو ما تعمد المحاولات التغريبية واليهودية الى التأثير فيه ، وذلك حين تشكك المصادر اليهودية : في مجىء ابراهيم الى مكة وبنائه البيت الحرام مع اسماعيل . وذلك بسوء نية . وهم يهدفون الى نفي الرابطة الجامعة بين ابراهيم واسماعيل ، وبين محمد عليهم الصلاة والسلام ورسالة الاسلام الجامعة الخاتمة . التي هي رسالة الاسلام الممتدة منذ آدم عليه السلام ونوح .

لقد عمد الاستشراف الى تزييف العلاقة بين الحنفية الابراهيمية وبين الاسلام ، وإثارة الشكوك حول ابراهيم واسماعيل عليهم السلام ، على النحو الذى قال به الدكتور طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى حين انكر وجود ابراهيم واسماعيل ، بالرغم من ثبوت وجودهما في التوراة والقرآن وان كانت الأحداث لم تلبث

أن كشفت زيف ما دعا اليه طه حسين جريا وراء الصهيونية في
دعواها بعد ظهور الحفريات التي كشفت عن كثير من آثار إبراهيم
واسماعيل وأبناء اسماعيل في شمال شبه الجزيرة العربية وحول
الكعبة .

ومن الأسباب التي تدعو إلى انكار الحنيفة الابراهيمية ، أنها
يدخلها الكردي والشركس والبربر والمسيحيون ، وهم يهددون إلى
اعلاء العنصريات للقضاء على هذه الوحدة التي هي « عربية
اللسان » ولقد أكد هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في
قوله :

« ليست العربية بأحدهم من أب ولا أم وإنما هي اللسان
 فمن تكلم العربية فهو عربي إلا أن العربية اللسان إلا أن العربية
اللسان » رواه الحافظ ابن عساكر بسنده من مالك .

دعوة البغضاء :

ان الدعوة المسمومة إلى إعادة بعث الأقليميات والعنصريات
القديمة ، إنما تهدف إلى اذكاء البغض والإحقاد باشارة الفرقـة ،
بينما تقوم استمرارية الحنيفة السمحاء على وحدة الفكر والعقيدة ،
وهي الوحدة الحقيقة وليس دعوى اللغة والتاريخ والأرض التي
يحمل لواءها العلمانيون الشعوبـيون .

* * *

(*) بدأت الدعوة إلى التوحيد من عهد آدم واستمرت وأخذت اسم الحنيفة في عهد
ابراهيم .

الباب الحادى عشر

الاسلام : نقل العالم من طفولة البشرية الى رشد الانسانية

جاء الاسلام حركة تحرر في مواجهة الغزو الخارجى وحركة عدل اجتماعى في مواجهة الاستغلال وحركة شورى في مواجهة الاستبداد وأخوة عالمية في مواجهة التفرقة العنصرية .

وفي الفتح الاسلامي حذر الاسلام من الغدر :

« لا تحرقن بيتا ولا تعقرن شاة ، ولا تقتلن وليدا ولا هرما ولا امرأة » .

وكان الرومان يبيدون كل عامر ويقتلون الأطفال والنساء والشيوخ . والاسلام أسبق شريعة قررت العدل الاجتماعي والشورى : لأنها تقيم الحرية على حق الانسان الذى لم يكن له حول ولا قوة ، حيث لا تشرع الحرية والمسؤولية ضرورة لا محيسن عنها كما شرعتها من قبلها حكومات الأقدمين وفي مجلس يزدجرد سأل الامبراطور سفير المسلمين : ما الذي جاء بكم ؟ فقال : ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان الى عدل الاسلام .

وأعظم عطاء الاسلام وذروة المعرفة فيه هي معرفة الله تبارك
وتعالى ولذلك دعا الاسلام الانسان الى الفكر والذكر .

المعرفة بالله وأسمائه جل وعلا ، ومعرفة عظمة ملكه
المتمثلة في الطبيعة والكون ومعرفة عالم ما وراء المادة ، والمعرفة
بكتاب الله ورسله واليوم الآخر .

والمعرفة طريق الى الایمان :

الایمان : بقوة علوية تشرف على الانسان من فوق وتمنحه
الأسلوب المتوازن الشامل الذي يتعامل به مع جهازه الانساني
الضعيف .

والدين هو الذي كون حاسة « الخوف من الله » وخشية الله
بما وضعه من مقاييس للفضائل والرذائل وتعهد بها النفس الانسانية
بال التربية والتقويم .

ويقوم الاسلام على مجموعة من الأصول العامة : عقيدة
سليمة وعبادة صحيحة وكتاب منير « القرآن » وأسوة حسنة
« الرسول » وشريعة عادلة وأخلاق ايجابية وتربيه صالحة وجihad في
سبيل الله .

ولقد دعانا الحق تبارك وتعالى أن نتفكر في خلق الله لا في
ذات الله فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تفكروا في خلق
الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا » .

ان المسلم يبحث في الكون وآفاقه ولكن لا يحاول أن يبحث
في الجوهر . عليه أن يبحث في الخصائص ولا يبحث اطلاقا عن

الماهية ، ذلك لأنه لا يملك أدوات البحث فالعقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله ولا أن يهتدى اليه الا اذا صحت فى تطوفه الى تلك الغاية قلبا يتلقى عنده مدركتاه .

ولقد أرسى القرآن العظيم قواعد الاسلام على وحدة الخالق ووحدة المخلق ووحدة النفس البشرية ووحدة الدين ووحدة الانسانية ووحدة الكون ووحدة التشريع وحق الله تبارك وتعالى على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وعبادته انما تمثل فى طاعة أمره وتجنب نواهيه .

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ﴾ .

ان الله تبارك وتعالى تكفل لمن يعتصم به أن يخرجه من كل ضائقه وكل أزمة ومن كل حيرة يقع فيها ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

ومفهوم الاسلام الحق لاستخلاف الانسان في الأرض وما له من ارادة محدودة يكون مسؤولا في حدودها يمكن الانسان من اقامة الانسجام والوحدة والتوازن بينه وبين عناصر الكون كلها : من مجتمع وحياة وانسان .

« وادراك المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق هذا الوجود كله وفق سنن ونوميس متفقة هو الذى وضع له هذا المنهج باعتباره أحد عناصر هذا الوجود يعطيه الثقة بأنه في نطاق هذا المنهج يمارس نشاطه مع حركة الوجود كله ووفق هذه الحركة بانسجام وتوافق لا يمكن أن يتحقق الا في ظل هذا المنهج فهو والحالة هذه ليس ريشة في مهب الريح ولا جرما انفلت عن مداره

ولا يدرى حتى يصطدم بغيره » .

وإيمان المسلم بأن له إرادة و اختيارا تجعله آمنا من الواقع
تحت سلطان الجبر الذي يقع فيه الماديون فيقتل منزع الإرادة منهم
ويعطيهم الجرأة على فعل المنكر ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا[ۚ]
عَلَيْهَا آبَاءُنَا وَاللَّهُ أَمْرَنَا بِهَا : قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولو لم يكن للإنسان إرادة و اختيار لما كان محل التكاليف
ولا موضعًا للحساب والجزاء ، ولما توجه إليه من الله تعالى أمر
ونهى .

* * *

أقام الإسلام نظاماً متكاملاً شاملاً للنفس والمجتمع تمثل
مقاصده الأساسية في نقاط محددة ، وأساس الإسلام أنه نظام
ديني آخر في آن واحد ، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا ولا
المجتمع عن الشريعة ولا الأخلاق عن الحياة .

وقد أحيا الإسلام عقيدة إبراهيم عليه السلام واعترف بجميع
الأنبياء والكتب السماوية المنزلة ، ونظم أمور المجتمع ووضع
تعاليمه في صيغة كليلة وأصول عامة متكاملة مترابطة متفاعلة لا
يجوز تجزئتها أو الأخذ بفرع منها دون الآخر ، وأقر نظام الأسرة
بالزواج وأعلن حقوق الأسرة ورفع مكانة المرأة وأبطل الرق وأعلن
الزكاة وجعلها حقاً للقراء . وقرر الإسلام أن العلاقة بين الله تبارك
وتعالى والانسان علاقة مباشرة دون أي وساطة وأكمل الإيمان بالله
وحده لا شريك له والإيمان بالبعث والجزاء والحساب وجعل طلب

العلم فريضة ودعا الى النظر والتماس الدليل والبرهان وحث على تنمية المدارك .

وأقام الاسلام شرعة الجهاد ونظم مفهوم المال الذى هو مال الله الذى آتاكم ، والانسان مستخلف لتوجيهه الى الخير وصالح الجماعة وفي سبيل الله .

وقد حرر الاسلام الانسان من الوثنيات جمعا : عبادة الأصنام والدنيا والابطال والخرافات والاساطير والغى التفرقة بين العناصر والتعصب للجنس ودعا الى المساواة والاخاء ووفق بين سلطة الحاكم وحرية المحكوم وأعلن احترام الملكية الفردية ووجهها الى العمل النافع وأقام التعاون والتكافل بين الغنى والفقير ففرض للفقير في مال الغنى زكاة ودعا الى التوفيق بين جانبي الانسان وجانبي الحياة الروحى والمادى وأقام الاسلام الالتزام الأخلاقي وجعله مناط المسئولية والحساب .

وأقام قاعدة حرية الفكر ، لا اكراه فى الدين ، وكفل لغير المسلمين حرية العقائد وحماية الأموال والتسامح .

وأطلق الاسلام العقل الانساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة فارتفع الى الاعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة ، واعترف بالنوازع البشرية وقرر حق الانسان في مزاولتها ووضع له ضوابط ونظمًا لتوجيهها الوجهة الصحيحة ، وهذب من مداخل هذه النوازع ومخارجها بحيث لا تؤذى الفرد نفسه ولا تسيء الى المجتمع كذلك وعاد الاسلام الى الوحدة العالمية وجعل من شعيرة الحج منطلقاً الى التقاء الأجناس

والعناصر ، وأقام الاخاء العالمي وقضى على كل تفرقة لونية أو عنصرية وشجب العنصرية القائمة على الدم والأنساب ومنع التفاضل بهما وجعل تقدير الناس بالأعمال .

أعلن القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى لم يرسل إلى البشرية طوال التاريخ البشري إلا دينا واحدا هو الإسلام : أي إسلام الإنسان وجهه لله ولحكم الله وكل الأنبياء الذين بعثهم الله في أقطار مختلفة وفي شعوب مختلفة في العالم ما جاءوا إلا بناءً على التوحيد والإسلام ، وقد غيرت التفسيرات من أصل الأديان وبذلت ، وحرفتها عن جوهرها الأصيل حتى جاء الإسلام يدعو وتعالى كتابه محفوظا من حيث النص مهيمنا على الكتب وجعل الإسلام خاتم الأديان وجعل رسوله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل وفرض على كل من شهد الإسلام أن يؤمن به .

وقد جاءت بشاراته في الكتب السابقة وكان كثير من المؤمنين يتربون ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم وترهصن الدلائل التي بين أيديهم ببعثه ومطلع رسالته . وال المسلمين يؤمنون بجميع من جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم من أنبياء ورسل وكتب وإن هذا الإيمان جزء أساسي من عقيدتهم لا يكمل إسلامهم بدونه وإن كانوا يتلقون الهدایة من النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقط لأن تعاليمه هي آخر التعاليم .

وكلام الله الذي بين دفتري المصحف هو كلام الهى محض لم يمازجه شيء من كلام البشر ، وهو محفوظ بلغته الأصلية ولغته هي أحدى اللغات الحية في العالم ، ولم يطرأ أى تغيير على

قواعدها ومبانيها ومعاناتها وأساليبها ورسوم الكتابة بها .

وما كان عليه النبي صلی الله علیه وسلم من الأخلاق والسلوك وما صدر عنه من الأقوال تم تدوينه وحفظه بأصح ما يكون من الطرق وأن رسالة محمد صلی الله علیه وسلم بموجب عقيدتنا جاءت لجميع العالم ولسائر الأزمان .

* * *

ان نظرة عميقه مستفيضة الى بعض الواقع والأحداث في حياة الاسلام الأولى من خلال تاريخ النبي محمد صلی الله علیه وسلم تكشف أبعاداً عريضة للدعوة الاسلامية لم تكن واضحة وضوحاً كافياً حتى جاءت هذه المرحلة من تاريخ الاسلام فألقت عليها ضوءاً كاسفاً . تعنى هذه الواقع ارتباط الدعوة الاسلامية التي جاء بها محمد بن عبد الله بميراث النبوة كله : ابراهيم واسماعيل وموسى وعيسى يتجلّى ذلك واضحاً في واقعة الاسراء بالنبي صلی الله علیه وسلم الى بيت المقدس وصلاته اماماً بالأنبياء جميعاً قبل عروجه الى السماوات العلا هذا الارتباط بميراث موسى وعيسى دليل على صدق نبوة محمد وانه جاء خاتماً لكل الرسائل والأنبياء وجاء كتابه خاتماً لكل الكتب ومهيمناً عليها ، وقد تحقق ذلك بعد سنوات قليلة عندما فتح المسلمون بيت المقدس وعقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسكنى القدس العهدية .

كذلك فقد جاءت فريضة الحج لتربط المسلمين بدين ابراهيم عليه السلام الذي أقام القواعد من البيت واسماعيل وأهدى الى أهل التوحيد تلك المناسب في منى وعرفات والمزدلفة وقد جاء

محمد صلى الله عليه وسلم دعوة ابراهيم ومن نسل اسماعيل
وسجل القرآن ذلك تسجيلا رائعا .

﴿ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبواه وهذا النبي ﴾ .

﴿ ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من
المشركين ﴾ .

وهكذا ارتبطت دعوة التوحيد بين ابراهيم و محمد عليهما
الصلاه والسلام وجاء هذا الارتباط واضحًا في كل دين جاء به
الأنبياء اذ حمل اليهم الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولقد
ذكرت التوراة والانجيل كلامهما هذه النبوة وسجلتها تسجيلا :
﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل ﴾ ولقد أبان سيدنا
عيسى بن مريم رسول الله الى بنى اسرائيل هذا الارتباط :
« ومصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي
اسمه أحمد » .

كل هذا يعطى مفهوما واضحًا هو المسئولية الكاملة النهاية
لكل ميراث النبوة والرسالة ، والارتباط بين أنبياء الله ورسله على
كلمة التوحيد يسلمها كل منهم الى من بعده حتى تختتم بمحمد
صلى الله عليه وسلم .

كذلك كشف القرآن عن عجز بنى اسرائيل عن حمل الأمانة
ولذلك نقلها الحق تبارك وتعالى الى العرب : ﴿ قل اللهم مالك
الملك تؤتى الملك من تشاء وتنتزع الملك من من تشاء ﴾ .

كذلك فقد جاء الاسلام بإلهامات واضحة تكشف عن أنه

دين رشد الانسانية وأن البشرية قد تجاوزت طفولتها ، فقد جاءت رسالة الاسلام معجزة بيان خالد باق الى يوم القيمة هو القرآن الكريم الذى تحدى به الحق تبارك وتعالى العرب والعلم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو بآية واحدة ، ولقد عجز البشر وما زالوا عاجزين الى اليوم والى أن يرث الله الأرض ومن عليها عن هذا التحدي .

ولقد جاء الاسلام ليفصل بين تاريخين للبشرية : تاريخ ما قبل الاسلام كله وهو تمهيد لنزول الاسلام ، وتاريخ العالم منذ الاسلام ، ومنذ أن بزغ ضوء الاسلام وهو عنصر فعال ومؤثر في كل حدث من أحداث البشرية على وجه الأرض .

وقد حرر الاسلام البشرية من الوثنية وعبودية الانسان في حضارات الفراعنة والفرس والهنود واليونان والرومان وحرر هذه المنطقة العربية التي توالت عليها أمواج الهجرات من قلب الجزيرة العربية خلال أكثر من خمسة آلاف سنة متواترة حتى جاء الاسلام فوسدت له العروبة والعربية ذلك السفح الممتد من العراق إلى الشام إلى مصر إلى أفريقيا وسرعان ما استجابت هذه الأمة كلها لكلمة الله في سنوات قليلة ونسقطت تاريخاً اغريقياً رومانياً امتد أكثر من ألف سنة من سوريا إلى إسبانيا عبر شمال أفريقيا ، منذ فتح الاسكندر الأكبر .

* * *

وفي يوم فتح مكة رفض رسول الله قول سعد بن عبادة :

اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمـة و قال : « اذهـوا فـأنتم
الطلـقاء » .

وأعلن الاسلام دعوة انسانية عالمية تخاطب الناس جميعا
فالناس كلهم من ذكر وأنثى عباد الله و خلقـه وقد استخلفـهم تبارـك
وتعـالى في الأرض ، وجعلـهم شعـورـيا وقبـائل ليـتـعارـفـوا وـمن آيـاتـه
اختلافـالـسـتـهـمـ وـأـلـوـانـهـمـ ، والـرـسـولـ صـلـىـالـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ رـسـولـ
الـلـهـ إـلـىـالـعـالـمـينـ ﴿ قـلـ يـاـ أـيـهـاـ النـاسـ إـنـيـ رـسـولـالـلـهـ إـلـيـكـمـ
جـمـيـعـاـ ﴾ .

واندـاحـ المـسـلـمـونـ فيـ أـنـحـاءـ الـأـرـضـ يـعـلـنـونـ كـلـمـةـ اللـهـ
ويـقـيـمـونـ دـعـوـةـ الـحـقـ ، وـلاـ يـعـمـلـونـ إـلـىـ اـفـنـاءـ السـكـانـ الأـصـلـيـنـ أوـ
اجـلـاثـهـمـ وـلاـ يـقـيـمـونـ المـسـتـعـمـرـاتـ أوـ يـضـعـونـ الـحـواـجـزـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ
سـكـانـ الـمـدـنـ الـمـقـيـمـيـنـ ، وـالـمـهـاجـرـيـنـ وـالـوـافـدـيـنـ سـوـاءـ فـيـ الـاعـتـارـ
الـإـنـسـانـيـ وـالـحـقـوقـ الـقـانـوـنـيـةـ .

ولـقـدـ وـاجـهـ المـسـلـمـونـ النـصـرـ وـالـهـزـيمـةـ ، اـنـتـصـرـواـ حـينـ
استـمـسـكـواـ بـكـتـابـ اللـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ وـحـقـهـ الـذـيـ بـيـنـهـ لـهـمـ وـانـهـزـمـواـ
حـينـ تـخـلـواـ عـنـهـ «ـ وـالـحـقـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ - كـمـاـ يـقـولـ الأـسـتـاذـ مـحـمـدـ
قـطـبـ - حـينـ يـتـعـامـلـ معـ رـسـلـهـ وـأـنـبـيـائـهـ وـأـتـبـاعـهـمـ مـنـ الـمـؤـمـنـيـنـ لـاـ
يـتـدـخـلـ مـنـ أـجـلـهـمـ فـيـخـرـقـ النـامـوسـ وـيـنـصـرـهـمـ بـالـمـشـيـةـ عـلـىـ طـرـيـقـةـ
كـنـ فـيـكـوـنـ »ـ وـانـمـاـ يـعـودـهـمـ أـنـ يـكـوـنـواـ أـوـلـ النـاسـ اـيمـانـاـ بـالـقـانـونـ
الـإـجـتمـاعـيـ وـأـكـثـرـهـمـ اـدـرـاكـاـ لـسـنـنـ الـحـيـاةـ وـنـوـامـيـسـهـاـ وـأـنـ يـكـوـنـواـ
أـحـرـصـ النـاسـ عـلـىـ التـوـافـقـ مـعـ هـذـهـ السـنـنـ وـالـنـوـامـيـسـ فـهـوـ يـبـتـلـىـ

رسوله صلى الله عليه وسلم بتكذيب الناس ولا يتدخل بالمشيئة المباشرة ليعفيه من أعباء الجهاد في سبيل دعوته وإنما يذكره بقانون الحياة وسنة الصراع بين الحق والباطل :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ . ويبين الله تبارك وتعالى علاقة المشيئة الإلهية بقوانين المجتمع فيقول : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ﴾ .

ولقد كشف الباحثون المنصفون عن هذا الدور الخطير الذي قام به الإسلام في « تحضير » البشرية ورفعها إلى درجة الإنسانية فيقول ايربرى : إن الإسلام لم يكدر ينزل على محمد في قلب جزيرة العرب حتى بدأ يغزو العالم بسرعة أذهلت المفكرين المحللين للتاريخ . وقد حاول المؤرخون المحدثون تعليم هذه الانتصارات الواسعة والفتحات العظيمة بردها إلى عوامل اقتصادية أو حربية أو سياسية ولكن كل تلك التفسيرات ظلت عاجزة عن التعليل الصحيح فكان لابد من الرجوع إلى العامل المؤثر وهو الدين الجديد .

إن بلاغة القرآن المعجزة مع بساطة تعاليم الإسلام التي جاءت في هذا الكتاب هي المفتاح لحل لغز أعظم « مد » في تاريخ الأديان ذلك أن الإسلام جاء يدعو إلى حياة منظمة جادة ، حياة جماعة عاهدوا الله أن يخضعوا لرادته في كل أمر ، وأن يجاهدوا في حمل كافة البشر على الاقرار بقدرته وملكوتة .

حقا ، اختار محمد رسول الله الرفيق الأعلى ، ولكن رسالته بقيت ، حملها معهم المجاهدون الى أطراف الأرض وكانوا جندا وفى الوقت نفسه مبشرين بدعاوة الدين الجديد . وأعلن أكثر من باحث غربى أن انتشار الاسلام كان أكبر خرقا للعادة ، يقول (م . روی) أن امبراطورية اغسطس الرومية بعد ما وسعها بطلها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة فى سبعة قرون ولكنها لا تساوى المملكة الاسلامية التى أسست فى أقل من قرن . ان امبراطورية الاسكندر لم تكن فى اتساعها الا كسرا من كسور مملكة الخلفاء الواسعة . ان الامبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة ولكنها غلت وسقطت أمام سيف الله فى أقل من عشر سنوات ، وما تزال مسألة « لماذا انتصرت الجيوش الاسلامية القليلة العدد والعدة على الجيوش الضخمة » أكبر معضلة فى تاريخ الاسلام وموضع دهشة الباحثين ، حين استطاع بسرعة انتشاره المذهلة خلال فترة قصيرة أن يسيطر جناحيه من حدود الصين الى حدود فرنسا .

ويرجع ذلك فى الرأى الأصدق الى طبيعة العقيدة وجمعها بين الدنيا والآخرة والعقل والقلب وطابع العدل والرحمة والاخاء البشرى وتحرير العقل الانسانى من الوثنية وتحرير الجسد البشرى من العبودية .

فقد عرف الاسلام منذ يومه الأول بمرونته فى مواجهة الحضارات والثقافات واتاحة الفرصة لأهل البلاد فى حكم أنفسهم ، وحرية العبادة وعدم فرض العقيدة الاسلامية عليهم بالقوة ، وكون الاسلام ليس دينا فحسب ولكنه كان فى مجمله

منهج حياة ونظام مجتمع .

وقد أدى الاسلام دورا حضاريا وثقافيا بالغ الخطورة خلال ألف سنة كاملة وانساب الى مختلف الثقافات والعقليات فمنها من تقبلته عقيدة ومنها من تقبلته ثقافة وحضارة ، وهو الذي أنشأ بذرة الحضارة الحديثة حين قدم لها المنهج العلمي التجريبي .

لقد كانت الدولة وأصحاب الأديان يفرضون مذاهبهم وعقائدهم بالقوة ، أما الاسلام فقد ترك لكل انسان حرية في العبادة وأقام العدل وحمى معابد اليهود والنصارى ولم يحارب المسلمين أبدا في سبيل نشر الاسلام وانما ردوا على عدوان من اعتدى عليهم أو وقف في طريق دعوتهم .

* * *

بماذا انتصر المسلمون ؟

يقول ماكس مايرهوف في كتابه (العالم الاسلامي) :

« يكاد يكون مستحيلا أن نفهم كيف أن أعربا منقسمين الى عشائر ليس عندهم العدد والأعتدة الازمة يهزمون في هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم في الأعداد والعتاد وكانوا يقاتلونهم في كتائب منظمة ، ان القول بالمراس الذى عرفه العرب للحروب والقتال والنظم والانقياد العام للقيادة فيه مغالطة كبيرة ، فقد ثبت أن الروم والفرس كانوا راقين في النظام الحربي ، وقد بلغت الدولة البيزنطية في بداية القرن السابع المسيحي زهوها وأوج قوتها ، ودحر الروم الفرس وردوهم على

أعقابهم عام ٦٢٥ قبل زحف المسلمين على الشام باشتباكات عشرة
سنة فقط ، وقد وقف ٤٠ ألف مسلماً في وجه الروم الذين كانوا
أكثر من مائة وثمانين ألفاً .

ونقول : لقد كان اليمان هو الموازن لفرق الكفة من ناحية
العدد والعدة ، فقد كان المسلمون يدخلون معاركهم وقد آمنوا بأن
الحرص على الموت يهب الحياة وكانوا يقدمون أنفسهم وأرواحهم
لله خالصة .

ولقد كان المسلمون رحماء في فتوحهم كرماء مع خصومهم
أيضاً .

أين هذا مما يقوله مؤرخ الحروب الصليبية حين يقول :
« اذا كنت تريد أن تعرف المعاملة التي لقيها أعداؤنا في بيت
المقدس فيكتفى أن تعلم أن أصحابنا كانوا يخوضون في بحر من
الدماء حتى الركب ولم يستطع أحد من الكفار (المسلمين)
الخروج سالماً ولم نعف عن أحد حتى النساء والأطفال » .

أين هذا الذي فعله المسلمون مما فعله فيليب الثاني بأمر
البابا عندما أصدر أمراً يقضي بطرد جميع المسلمين من إسبانيا
وقبل أن يتمكن المسلمون من الفرار والنجاة بأنفسهم تم القضاء
على ثلاثة أرباعهم بأمر الكنيسة والذين استطاعوا النجاة من الموت
أصدرت في حقهم محاكم التفتيش أمراً بالاعدام ثم القضاء على
ثلاثة ملايين مسلم دون مبرر .

ومع ذلك فقد أعطى المسلمون حضارتهم ولم يخلوا :
يقول المؤرخ الكبير هونشو : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال

المسلمين فإذا هم جلوس تحت أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، ولقد بدت أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التي رجحت حضارتهم رجحان لا تصح معه المقارنة بينهما .

وكان هناك جانب قد خفى على الغرب ، هو أنهم لم يفهموا الاسلام فهما صحيحا فقد استقى الغربيون معارفهم عن الاسلام من مصادرتين (كما يقول ادوين كالفرلي) أحدهما يتمثل في الشائعات التي روجها بعض المحاربين والتجار الغربيين وغيرهم ، والأخر يتمثل في المعلومات التي أذاعها الغربيون القليلون الذين اطلعوا على القرآن وغيره من كتب الاسلام ، وقد ذُررت الشائعات التي روجت عن الاسلام بأخذاء كثيرة ما زال بعضها راسخا في أذهان كثير من الغربيين ومن بين هذه الأخطاء أن المسلمين يعبدون محمدا وليس عسيرا أن يتقبل الغربي هذه الفكرة فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح ، فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمدا مؤسس دينهم الذي يطلق عليه الغربيون لهذا السبب اسم « المحمدية » .

وقد كانت هذه الفكرة شائعة في أوروبا قبل حروب الصليبيين وأنباءها ثم زادت رسوحا ورواجا عند عودة الصليبيين من حروبهم فقد حاول الدعاة من رجال الدين وقادة الجيوش العائدية أن يشيروا في نفوس الجنود بغض المسلمين فأخذوا يروجون الاشاعات المضللة عن معتقدات المسلمين وتقاليدهم وفي مقدمتها أنهم يعبدون محمدا نبيهم ووجدت هذه الاشاعات مرعى خصبا بين أولئك الجنود فأخذوا يتناقلونها ويرددونها مع الزيادة فيها ولا سيما

ان أكثرهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون حتى بلغتهم الأصلية ، كما أنهم لم يختلطوا بال المسلمين ولم يكونوا يعرفون العربية ، فلم يتح لهم أن يقرأوا أو يسمعوا شيئاً يذكر عن الاسلام والمسلمين ، والعجيب أن هذه الفكرة الخاطئة ما زالت شائعة تجد الطريق ممهداً لترويجها ويروج كتاب (ماركوبولو) لهذه الفكرة الخاطئة بطريقة غير مباشرة . ففي الفصل الخامس منه يتحدث ماركوبولو عن العرب الذين يعبدون محمداً .

وهناك صحف غربية كثيرة ما تزال تقع في هذا الخطأ وتردده ، وبعض المعاهد الغربية تلقن طلبتها هذه الفكرة ويرى أساتذتها أن محاولة المسلم أن يطيع محمداً ويحاكيه في كل أفعاله ليس الا عبادة في حين يقر المسلمين جميعاً أنه لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وفي حين أن طاعة المسلمين لمحمد ليست الا طاعة للله الواحد الأحد الذي دعاهم الى عبادته .

ويصور برنارد شو موقف الغرب من الاسلام فيقول : « لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطى الى تصوير الاسلام في أحلك الألوان والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويعذونه خصوصاً للمسيح أما فأرى واجباً علي أن يدعى محمد منقذ الإنسانية وأعتقد أن رجلاً مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث لننجح في حل مشكلاته » .

والواقع أن محمداً ودينه لم يكرهها المسيح عليه السلام ولم يختصما معه بل آمنا به ايمانهم بكل أنبياء الله ورسله وكتبه وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلي ومثل الأنبياء من قبلـي كمثل رجل بنى بيـتا فجملـه وحسنـه لا موضع لبنيـة في زاوية من

زواياه ، فكان الناس يطوفون بالبيت ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين » .

ولقد أنكر الغرب والى زمن قريب فى مدى أربعة قرون فضل المسلمين على الحضارة العالمية ، أما المسلمين فانهم قد اعترفوا بما أفادوا من تراث الأمم ، هذا الذى غربلوه ونخلوه فى ميدان العلوم الطبيعية والرياضية فحسب أما فى مجال الانسانيات والعقائد وأسلوب العيش والأدب فانهم لم يأخذوا من أحد واستهدروا فطرتهم وطبيعتهم وفي مجال العلوم استطاعوا أن ينشئوا المنهج العلمي التجريبى وكانوا منصفين دائمًا لكل ما عرفوا من علم واعترفوا بفضل من سبقهم فى أى ميدان دون أن يجدوا في ذلك غضاضة ، فقد علمهم دينهم : العدل والانصاف من النفس وقد فعل الغرب ذلك كله ليصور المسلمين أمماً أهليهم بصورة العاجزين عن الانبعاث مرة أخرى أو بصورة التابعين لحضارة الغرب ورغبة فى احكام السيطرة والنفوذ على مقدراتهم ، كما حاولوا اثارة الفتنة القديمة والخلافات بين مختلف الوفود التى طوحت مرة أخرى للتفرق بين المسلمين .

ومع ذلك فقد استعاد الاسلام وحدة الفكر من جديد وعرف أهداف الغزو والتغريب وقطع مراحل طويلة فى التقدم الاجتماعى وفى التوسيع السلمى فدخل بلاداً كثيرة وانتشر فى مختلف القرارات وأثبتت كلمة لا اله الا الله ملابيin الصدور التى كانت حائرة مضليلة .

ووصف ذلك عدد من المؤرخين المنصفين فقال أحدهم انه متى دخلت قبيلة من القبائل الوثنية فى الاسلام اختفت عنها فى

الحال عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الإنسان وتقديم
الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر ، وصاروا يرتدون الثياب
وحلت فيهم النفلافة وشعروا بالعظمة واحترام النفس وصار قري
الضعيف عندهم من الواجبات الدينية وندر شرب المسكرات وحرم
التمسار والرقص المنافي للعفة فوضى اختلاط الجنسين وصارت
طهارة العرض من أعظم الفرائض وذهبت البطالة والكسيل ودخل
العمل والكد محلهما وتغلب النظام والرزانة على الشقاق وحربت
القسوة على الحيوان والعيid ، وتعلموا الشعور بالانسانية واللطف
والاخوة ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

﴿أَفَمِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ .

فهرس

٧	مقدمة
٣٣	الباب الأول : التاريخ في مفهوم الاسلام
٥٤	الباب الثاني : البطولة في تاريخ الاسلام
٧٣	الباب الثالث : الدولة العثمانية
٩٦	الباب الرابع : السلطان عبد الحميد
١١٥	الباب الخامس : كمال أتاتورك واسقاط الخلافة
١٢٩	الباب السادس : عودة الخلافة الاسلامية
١٤٣	الباب السابع : يقطة الاسلام في تركيا المسلمة
١٦٦	الباب الثامن : الدرة المغتصبة بعد ثلاثين عاماً
١٧٩	الباب التاسع : فساد نظرية الجنس السامي وللغة السامية
٢٠٠	الباب العاشر : الانقطاع الحضاري
٢١٠	الباب الحادي عشر : الاسلام نقل العالم من طفولة البشرية إلى رشد الانسانية
٢٢٨	فهرس